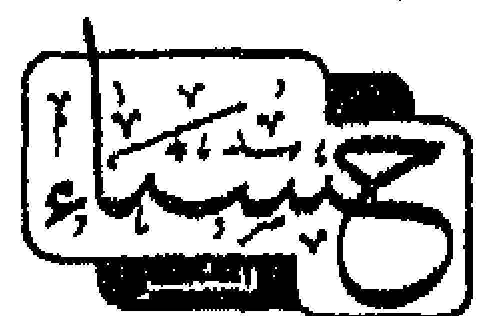

رواية
شخصيات حول
بديعة
بنت ريا وسكينة
مصطفى عوض

شخصيات حول
بديعة

ديوى : 813
عوض ، مصطفي
شخصيات حول بديعة / مصطفى عوض
الإسكندرية : حسناء للنشر
ط1 / 2015
199 ص ، 15 X 20 سم
تدمك : 978-977-85187-4-0
1- قصص
2- شخصيات حول بديعة
أ- مصطفى عوض
رقم الإيداع : 7383 / 2015



الإسكندرية ، ج . م . ع
01018831361
01022842898
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

شخصيات حول بديعة

(بنت ريا وسكينة)

رواية

مصطفى عوض

يوسف الشامي

مقدمة

اسمحوا لي أن أعرّف قارئي العزيز الذي لم يقرأ رواية بديعة بنت ريا وسكينة من هو يوسف الشامي.
هذا الرجل دوره محوري في روايتي "بديعة بنت ريا وسكينة" رغم قصر دوره إلا أن زخم الأحداث التي نشأت ضمن أحداث الرواية بسببه أو بمعنى أدق دور أهل طائفته والتي كانت تعتبر نسجاً عزيزاً من نسيج الشعب المصري المتين ، فتلك الطائفة إلا قليلاً منها تم تعميتها تمام التعمية للتنتزع من قلب غُرز هذا النسيج ، بل كانت الطائفة اليهودية بمصر تمثل النجمة الثالثة في العلم المصري الأخضر يتوسطه الهلال وداخله النجمات الثلاث، و لكن من جرى خلف الصهيونية بتطرفها وعنصريتها وبُعدها عن اليهودية الحقة التي أنزلت على كليم الله ، جعلت منهم شراذم تريد أن تسكن وطنًا واحدًا بعد أن كانت كل بلدان العالم أوطانهم ، يتمتعون بكامل الحرية في كل المجالات ، وقد حباهم الله بالعلم وإتقانه ، من أمثال أينشتاين ونيوتن ألفريد سيجموند وغيرهم ، وبرعوا في التجارة والمال ، ولنا أمثلة منهم في مصر أمثال شيكوريل وبتريون وعدس وريفولي وعمر أفندي وصيدناوي وغيرهم ، وكل هؤلاء المجيدين أجادوا في أوطانهم الحقيقية لا في الوطن الذي صورته لهم الصهيونية

العالمية التي صبغت حركتها بالصبغة السياسية باسم الدين رغم علمانيتها المعلنة ، ولكن كان لمؤسسيها رغبة في أن يكونوا حاكمين لا محكومين ، ليظهروا فيه عنصريتهم وتعاليهم على باقي البشر آملين في عودة حقبة داود النبي الملك وسليمان ابنه عليهما أفضل السلام ، ولكنهم كانوا حقاً بعيدين كل البعد عن الدين نفسه الذي أمرهم بالوصايا العشر، ونهاهم عن القتل فقتلوا ، ونهاهم عن السرقة فسرقوا أراضي آخرين لم تكن لهم يوماً من الأيام.

تصادف تنفيذ المخططات الصهيونية تلك مع الأحداث الحقيقية لقضية ريا وسكينة ، ووددت أن أمزج أحداثاً تاريخية كان لها أثرها على العالم مع الحدث المحلي ، فكان لي ما أصبو إليه من ربط مؤلفي الذي قد ينسى مع واقع تاريخي ثابت لا ينسى ويظل في الذاكرة، وهذا ما وددته من خلال سبر أغوار تلك الشخصيات الغير الحقيقة والتي هي من نسج خيال راوٍ ليس إلا، فيعلم من لايعلم ما هي الصهيونية وأثرها على التاريخ والتواريخ التي تلت تلك الحقبة الزمنية .

المؤلف

مصطفى عوض

سبتمبر 2012

الفصل الأول

"الأصل غلاّب"

اسمح لي عزيز القارئ أن أخوض بك في منطقة يعتبرها الكثير منطقة خطر، سندخلها من خلال يوسف الشامي لنوضح طباع بعضٍ من اليهود وليس جميعهم، حتى لا يتهمني أحد بأني معادٍ للسامية، وأظن أني من نسلهم، فكيف لي أن أعادي أجدادي، سلفي الصالح أو الطالح منهم؟ ولنعرف نسب يوسف نفسه ، فعلم الأنساب وتسجيله سمة أساسية عند اليهود دون باقي البشرية، يسجلونه ويدونونه بدقة متناهية، ومنهم من يحفظ الأنساب داخله بل ويحرص على نقلها للثقات من أهله لتبقى جلية واضحة .

فنسب يوسف يعود إلى اليهود الفارين من شبه الجزيرة العربية العائدين للشام من فلول بني قريظة أو بني قينقاع أو بني النضير أو من يهود خيبر، وذلك بعد أن دانت الجزيرة العربية عن بكرة أبيها بالإسلام، وهنا يجب أن نسأل أنفسنا عن السبب الرئيسي الذي جعل هؤلاء الرهط من اليهود يتركون نعمة الشمال للدخول في هجير الجنوب بكل قسوته ، لابد أنه هدف سامٍ ، شرف يستحق هجر رغد الحياة والثمر والشجر وطلاوة الطقس وحلاوة المعشر والحياة، هجروا كل ذلك للعيش في الصحاري والقفار والفاقة وندرة المياه وقلة الشجر وانعدام الثمر وهجير الشمس وقر البرد،

ولغة صماء عاقر محلية لا يفقهونها وصعبة التعلم كتابة وقراءة ، فما سبب كل ذلك ؟ لابد أن هناك شيئًا يستحق كل تلك المعاناة ، والإنسان بطبيعته لا يهجر مراتعه المنعم فيها إلا من أجل عقيدة دينية تتحكم فيه أو شهوة تتسلط عليه ، وما حدث مع أبناء عمومتنا هؤلاء هما الدافعين معاً ، هو الدين والشهوة، كيف حدث ذلك؟ هذا ما سنتعرف عليه خلال تلك السطور.

وقبل أن نبدأ في سرد أسباب هجرة اليهود من الشمال للجنوب دعنا نتذكر ما ورد في أحسن القصص التي خطّ أحداثها، وأحكم حبكتها، وأبدع في سردها العلي القدير الله سبحانه وتعالى ورواها في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل حيثما كان وهو القرآن الكريم وهو قصة سيدنا يوسف عليه السلام .

ففي تلك السورة وآياتها وتفسيراتها تعلم علم اليقين من هم اليهود تمام المعرفة، وينطبق كل ذلك في ما ورد بالكتب السماوية الكريمة المنزلة في العهدين القديم والحديث، من كل تلك المصادر الإلهية ستعرف من هم الأسباط وما نسلهم ونسبهم، وكيف كانت نفسيتهم، فمنهم من هم أصل من أصل، وأقصد بذلك أولاد سيدنا يعقوب من زوجتيه بنتي خاله راحيل وأختها البارة لآه ومنهم من هم أبناء الإماء اللاتي تركن في نفوسهن عقدة النقص التي وضعت في نفوس الأسباط غلاً لأخيهم يوسف، كما كانت لهم حجج

وسطوة أثرت على إخوة يوسف من خالته ومنهم سيدنا "لاوي" الذي قبل الأمر على مضض وتدخل في الأمر تدخلاً حسبه الله عليه ، فكانت النبوة من نسله جزاءً وفاقاً لما فعله مع إخوته بعدم قتل يوسف عليه السلام، ولكن يبين لنا هذا الحدث قوة منطق باقي الإخوة وعدم قدرة لاوي أخي يوسف من خالته "لآه" على منع تلك الجريمة من الأصل ، رغم أنها قضية قدرية محددة بيد حكيم خبير، ولكني أستشهد بتلك الأحداث استدلالاً على ما كان في تلك النفوس من حقد وغل توارثه خَلَفُهم، فكان منهم قتلة الأنبياء ، وما كان أكثر من أنبياء بني إسرائيل ، والذين كانوا من نسل محدد وهو أولاد يعقوب من ابنتي خاله لا من جواريه، كما أود أن أشير إلى حقيقة أخرى هي أن الجواري اللاتي دخل بهن يعقوب وأنجب أسباطه منهن ، كن سبايا منهن من كانت على علم ودراية بالكتابة والقراءة ، فعلمن أبناءهن من الأسباط ولم يعلمن باقي إخوانهم ، كنوع من الرفعة وتعويضاً للنقص في الأنساب ، وورث أيضا هؤلاء الأولاد شح التعليم وعدم نشره إلا في نسبهم دون غيرهم، فكانا منه الفريسيين والكتبيين، الذين دونوا ونقلوا كل الأثر، على أمل أن يبعث فيهم نبي فيعلو نسبهم بجوار علمهم، وهذا لم يحدث ، كون أن الفضل بيد الله وحده يترله على من يشاء من عباده ، فكانت تلك عقدتهم الأبدية، أنهم يعلمون ولا يكرمون من الله ، قد يكون جزاءً وفاقاً من الله أيضاً ، فما كان لهؤلاء وراثي الشر والحقد والغل إلا قتل الأنبياء ومعارضتهم الشديدة فيما جاءهم

الله به من فضل بعد سيدنا موسى عليه أفضل السلام ، وهاهم يقتلون دنيال وحزقيال وصومائيل والكثير من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وكان آخرهم روح الله وابن المصطفاة الصفية البتول خير نساء العالمين ، وما رآه منهم هو وأمه التي رغم عفتها التي أقرها السماء لم تسلم من أذاهم ، ولم يرتدعوا لحديث الطفل المقدس في المهد، بل كانوا عبدة للمادية المطلقة دون الإيمان بالغيب وقدرة الله، وكم رأى هو سلام الله عليه وصلواته منهم من عنت طوال فترة دعوته الشريفة، والكل يعرف أنهم كانوا وراء حادثة الصلب، وبعده انقطع وحي السماء ، وتوقفت السماء عن إرسال أنبياء لهؤلاء البشر، فلن يتغيروا ، حتى ولو نزل ملكٌ من السماء فلا جدوى مرجوة فيهم بعد اليسوع المبارك روح الله التي نفخها في سيدة نساء الخلق المقدسة مريم سلام الله عليها.

ولكن علمهم لم ينقطع ، سيبعث الله نبيًا آخر الزمان ، هذا الموجود لديهم في الأثر الذي احتفظوا به لأنفسهم دون إخوانهم من بني إسرائيل ، فأرادوا تعمية الله سبحانه وتعالى في المقام الأول وتعمية إخوانهم من بني إسرائيل في المقام الثاني، فاحتفظوا بما لديهم من دلالات وعلامات ومنبئات عن الزمان والمكان الذي سيبعث فيه نبي آخر الزمان..

احتفظوا به لأنفسهم وورّثوه لأبنائهم وأبناؤهم ورثوه لأبنائهم حتى يقرب زمن النبوة الخاتمة.

وقد كان فانسلخ هؤلاء القوم عن باقي بني إسرائيل واختاروا الهجرة للجنوب، وكما قلنا تحملوا كل الصعاب.

كل ذلك طمعاً في نبوة منتظرة عرفوا بها وأيقنوا نزولها — نزول نبي آخر الزمان، النبي الخاتم داعي الإنس والجان لعبادة الله وحده وتطهير الأرض من الرجس وعبادة النار والأوثان، فقد عرف هؤلاء فقط وليس العلماء منهم زمان ومكان نزول تلك النبوة، فقد قارب زمن النزول، فكان الواجب عليهم أن يكونوا في مسرح الحدث، فتوجهوا للموقع المنشود إلى جزيرة العرب ، وكان لديهم في الأثر مواصفات توضح المكان كوصفٍ تفصيلي بلا تحديد قاطع، لا بل تشتمل فقط على وصف وطبوغرافية (تضاريس) المسرح، فالمكان المحدد ماهو إلا بقعة بجزيرة العرب بها نخل كثيف بين جبال ليست بشاهقة وإن كانت وعرة وكثيرة، وتحيطها حرتين (الحرة هضبة ليست بالعالية مستوية السطح يمكن السكن عليها)، ولا يوجد بجزيرة العرب سوى موقعين فقط ينطبق عليهما تلك المواصفات وهما بلدة تدعى يثرب وإن كانت كبيرة، وبلدة أخرى تدعى خيبر وإن كانت صغيرة عن الأولى ، فحلوا بها وسكنوها واكتتبوا وجاوروا واستجاروا بالعرب قاطني تلك البلدتين، وتوددوا لهم بكل

السبل والإغراءات المباحة وغير المباحة، حتى استقر هم الأمر بالبقاء في تلك البلدتين، بل أصبحوا يتكلمون بلغتهم وسموا أنفسهم بأسماء عربية مع حفظ أسمائهم العبرية ولغتهم العبرية أيضاً، وحافظوا عليهما كحفاظهم على أعينهم حتى يصلوا إلى هدفهم المنشود، عسى أن يرضى عنهم الرب فتكون النبوة الخاتمة فيهم، فهم شعب الله المختار الذي كان له أيام مع الله دون باقي البشر ، يذكروها من باب الفخر لا من باب العمل بها، يستفتحون بها وبما لديهم من علم من الله على باقي الشعوب الذين يعتبروهم أميين أو أمميين وليس لهم فيهم سبيل، فكل ما للأميين مباح لليهود، أليسوا هم شعب الله المختار؟ وغيره من الحجج التي لديهم، والتي تتنبأ بأن النبوة الخاتمة دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام "ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم "، وبشارة كلمة الله عيسى عليه الصلاة والسلام "ومبشرًا برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد".

فكانت حجتهم ودليلهم القاطع والذي لالبس فيه يستند على أمرين مهمين هما :-

الأمر الأول:-

هو أن سنة الله الثابتة لديهم أن كل الأنبياء الكرام الذين أنزلهم الله من بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من نسل إسحاق من نسل

يعقوب ، فلابد أن النبي الخاتم سيكون كذلك، ولايمكن أبداً أن يكون من نسل أبناء عمهم النبي إسماعيل عليه السلام (ابن الجارية هاجر)، فلم يبعث من نسله نبي من قبل أبنائه ، فأبناؤه وثنيون عبدة أصنام ، وإن كانوا يقيمون في تلك البقعة منذ أن ترك إبراهيم ابنه وزوجته أمة أمهم سارة في تلك الصحراء الجرداء التي ليس بها زرع وماء ، كما أن هؤلاء الغوغاء تنشب بينهم الحروب لأتفه الأسباب ربما من أجل بيت شعر أو تشبيب بامرأة أو من أجل ماء أو كلأ، فهؤلاء همج متوحشون، بدائيون بباديتهم يقطعون أرحامهم، يصنعون مجدهم بأسلوب الكلام لا الأفعال من خلال ما يسمونه شعراً بارعين فيه هم وحدهم دون غيرهم، كما أنهم لا يسكنون في مكان النبوة المنتظرة لافتقارهم العلم الرباني، منكبون على عبادة أصنام لاتسمن ولا تغني من جوع، وكل ما يذكرونه من أحاديث الأولين يسمونه أساطير لا حقائق، متمسكون بما وجدوا عليه آبائهم فكيف يكون لهؤلاء البشر رفعة النبوة وسؤددها التي ستنال نبي آخر الزمان هو وقومه.

أما الأمر الثاني:-

وهي تلك اللغة التي يتكلمها هؤلاء الأعراب فهي لغة صماء، لا يمكن تعلمها وإن من تحدث بها لايمكن له كتابتها، للغالبية من العرب أصحاب تلك اللغة نفسها، بل يحفظونها من خلال

أشعارهم، والكثير من شعرائهم ينطقون بها ولا يكتبونها ، إلا بعضاً منهم الذي يعلم تلك اللغة قراءةً وكتابةً، فهي حـــروف متشـــابهة تماماً، فالحاء مثل الخاء مثل الجيم ، والعين مثل الغين، والباء هي التاء هي الياء والثاء، وكذلك السين والشين والفاء والقاف وغيرهم (لم تكن هناك نقط على الحروف أو تشكيل وقتها بل تحدد كل ذلك بعد ظهور الرسالة الخاتمة بسنين إبان الدولة الأموية) فكيف تكـــون تعليمات الله إلى البشر بتلك اللغة المحلية المغلقة على أهلها من أبنـــاء إسماعيل؟ فالأمر مستبعد، فالنبوة ستكون في بني إسرائيل وبلغة بـــني إسرائيل ، تلك اللغة المقدسة لغة الخليل إبراهيم.

هذا ما كان يتصورنه ويعتقدون فيه وبـــه وتلـــك آمـــانيهم، وأحلامهم، لاحباً في الله بل طمعاً في شرف دنيوي زائف، وأنـــت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، يهب فضله لمن يشاء من عباده.

ظهرت في الأفق العلامات الأخيرة المبشرة بقرب ميلاد الـــنبي الخاتم، كل البشائر تحدث كما لديهم في الأثر، تنطفئ نار المجوس، تتهدم تراسات إيوان كسرى، تنحسر مياه بحـــيرة ســـاوة، حـــتى العلامات والظواهر الفلكية تحدث في ذلك اليوم، ولكن هناك مـــا أقلق راحتهم وأرق مضاجعهم، لم يولد في تلك الليلة ولد ذكر لهم على الإطلاق، والحبالى منهم وضعن إناثًا وليست الأنثى في هـــذا الأمر كالذكر، هناك خطأ ما ولكن تلك هي العلامات المؤكـــدة،

وعلم منهم القليل المعنى من عدم ميلاد ذكر وأنكر الكثير منهم الأمر.

وبالفعل صدق حدثهم وحان وقت النبوة الخاتمة كزمان ومكان ، وُلِدَ النبي الخاتم من نسل إبراهيم، يبعث ويقود العالم من يثرب لتصبح مدينة الله المنورة التي تشع نور إيمان بالله الواحد القهار لتطيح بعبادة الأوثان والنار، وتلك كانت نصوص علمهم عن النبي الخاتم ولكن خابت أمانيهم بأنه ليس من نسل إسرائيل بل كان من نسل عمه إسماعيل عليه الصلاة والسلام "ابن الجارية"، ولكنها ليست جارية مثل أمهم، بل جارية امتحنها الله في إيمانها مرتين، أولاهما عندما أطاعت أمر الله باصطحاب زوجها الخليل عليه الصلاة والسلام دون معارضة أو ضيق أو تذمر إلى تلك المنطقة التي لازرع فيها ولاضرع، ما فعلته أنها سألته فقط أهذا ما أمرك الله به؟ فلما أجابها رضيت بأمر الله ولم تتذمر أو تنفث شر حقد أو غل على هذا الأمر في نفسها أو في ابنها الرضيع التي ربته وحدها منفردة دون وجود الأب ، ولم تحقد على ضرتها سيدتها السيدة سارة رضوان الله عليها، بل أرجعت وسلمت أمرها لله الذي لن يضيعها هي وابنها الرضيع، فصبرت وتركها زوجها بلا زاد ولا ماء بل كان ها رضاء بالقضاء فكان لها حسن الجزاء، وكان الاختبار الثاني لتلك الجارية هو رضاها الإيماني الكامل، على أمر الله لزوجها عليه الصلاة والسلام، وأن لا تعترض عليه رغم قسوته بترك ابنها

الذي ربته كما قلنا وحدها وفي ظروف قاسية حتى كبر وبلغ السعي على رزقه أن تتركه لأبيه أن يذبحه كما أمره الله، و لم تفعل شيئًا غير سؤاله أأمرك الله بذلك؟ فلبت هي وابنها وصدعا لأمر الله بصورة إيمانية بحتة " افعل ما شاء الله ستجدنا من الصابرين"، هكذا طهّر الله تلك الجارية من الحقد والغل لتكون غير جواري ابن ضرهما اللاتي لم يطهرهن الله، بل أورثن الغل والحقد لأبنائهن لمجرد حب أبيهم لأخيهم يوسف، فقالوا اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم، دون ذنب ارتكبه يوسف أو أمه رحيل لتلك الجواري لو تم القياس بما فعلته سارة بهاجر.

وثاني الأمر الذي خاب فيه حدسهم أن الرسالة نزلت بتلك اللغة التي استبعدوا أن يترل بها ذكر من الرحمن للأرض، فكانت تلك هي المعجزة الأولى للقرآن أن نزل قرآنًا عربياً ليتحدى اليهود كما تحداهم يوم أن أتت الصفية المصطفاة مريم البتول بابنها واستنكروا أن يكون الله نفخ فيها من روحه المقدسة فهذا القرآن إذن معجزة أمام بني إسرائيل أن نزل بالعربية.

وأعتبرها أنا بمفهومي الشخصي أنها هي المعجزة الأولى في القرآن، قبل أن يكون معجزة لأهل اللغة أنفسهم الذين بهتوا من شدة بيانه وتبيانه وبلاغته وأقروا بأن له حلاوة وعليه طلاوة،

وفشلوا وهم أهل تلك اللغة أن يأتوا بمثله أو يفروا فريه لأنه تحد من الله عز وجل.

وأمام خيبة الأمل التي نالت مشتاقي النبوة من اليهود بعدما تعبوا كل تلك السنين وكل ما عانوه من عنت ومشقة وتحمل فقد فشلت مساعهم لنيل شرف نبوة آخر الزمان وهم يعلمون كل العلم أن لانبي بعد هذا النبي، سيأتي بالناموس الكامل المتكامل من السماء وبعده سينقطع الوحي ولن يأتي للأرض من السماء أي شئ حتى قيام الساعة، فلم يبق لهم إلا وأد الرسالة الخاتمة والتي كانوا قد أعلنو عنها ويستفتحون بها على العرب وغيرهم، والآن بعد حدوثها كعادتهم ينكرونها، يتذكرون أصلهم المتأصل في الحقد والغل، كما أنكروا أنبياء بني جلدتهم، ما أسهل أن ينكروا محمدًا عليه الصلاة والسلام، وإنكارهم المسيح عليه السلام ليس ببعيد، ولو طالوه لقتلوه مثلما قتلوا من الأنبياء، وبالفعل حاولوا ولكن الله أفشل محاولتهم، وأظهر أمرهم لنبيه، فحدث ما حدث لهم من شر جراء ما فعلت أيديهم وخربوا بيتوهم بأيديهم، ورغم الكرم والاحترام الكامل الذي وجدوه في نبي آخر الزمان والأمن والأمان الذي حرص على أن يظهره لهم بالحسنة التي كان يجادلهم بها ليس فظاً ولا غليظ القلب، ورغم العهود والوعود، فقد خانوه ليس إلا حسداً وغيرةً، كالتي أصابتهم عندما شعر أجدادهم بها ناحية أخيهم الأصغر يوسف بن يعقوب ففعلوا فعلتهم الشنيعة به، وخيب الله

مساعيهم وأظهر لهم يوسف وقد مكّن له في الأرض، فقد خيب الله مساعي أحفادهم ومكن لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام في الأرض، وطردهم شر طردة من جزيرة العرب ليعودوا في شتات كُتِبَ عليهم نصيباً مما في أنفسهم، فمنهم من ساح في الأرض ومنهم من عاد للشام وكان شخصية روايتنا تلك (يوسف الشامي) من أحفاد من عادوا للشام من الجزيرة بعد أن فقد الأمل في الرفعة والشرف.

عندما يأتي ذكر اليهود في كل الكتب السموية المترلة من رب العالمين وصور ما يفعلونه من جدل ومخالفة لتعليمات الله لابد أن نقول "إلا قليلاً" بمعنى أهم ليس كلهم بالسوء المطلق، ومنهم القليل هم بالفعل المؤمنون حقاً، منهم من لم يشرب من نهر طالوت الملك الذي ذهب لقتال جالوت، ومنهم من ثبت معه في الحرب ولم يفر إيماناً بدعم الله للقليل للانتصار على الباطل ولو كان كثيرًا، وكثير من الأمثلة وردت بالكتب السماوية وآخرهم القرآن الكريم عن حال اليهود، وهذا يؤكد ما أسوقه من أن منهم من ورث الحقد والغل على مر العصور فتطرف وغالى باسم الدين.

وهو الدافع الذي من أجله جاءت الحركة الصهيونية، والتي لا يعتقد فيها كل اليهود، بل إن منهم وهم القليل ضد تلك الحركة غير المباركة دينياً لكونها علمانية في ثوب الدين اليهودي بدليل أنهم

كانوا يبحثون عن أي أرض وليس فلسطين بالتحديد فمن ضمن ما طرحوه كوطن لهم في الأرجنتين، أو أوغندا، ولكن لما عرض عليهم بلفور فلسطين هللوا لها على أنها أرض الميعاد، ولذا خططوا للتمكن من تحقيق حلمهم الصهيوني فاقتربوا بجوار صيدهم رويداً رويداً ، حتى ما إن يتهيأ لهم الأمر انقضوا على فريستهم.

وعلى ضوء ذلك زاد تواجدهم بالشام، وكانت فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة شبه محرمة عليهم، والتاريخ يذكر ما فعلوه من جهد مع سلاطين الدولة العثمانية في تلك الحقبة الزمنية.

وعلى هذا الأساس عاش جدود بطل قصتنا "يوسف الشامي" في ربوع الشام بعد طردهم من جزيرة العرب، بعد أن قطعوا شوطاً كبيراً في الشتات من المغرب، ولكنهم عاشوا في الشام قبل صدور وعد بلفور المشئوم، بعد المؤتمر الصهيوني العالمي والذي دعى إليه هرتزل عام "1889" بمدينة " لوزان" بالنمسا.

وكان جد يوسف الشامي ـــ ويدعى يوسف أيضاً ـــ يعمل في تجارة "النُقل" وهي المكسرات بأنواعها، ويجيد تصنيعها، بجوار صناعة الخل والخمور والكحول بأنواعه، ويحتفظ بأسرار المهنة التي تجعل من منتجاته نكهة لا تضاهى عن باقي المنتجات المثيلة والتي تنتج حوله فكان متفرداً في صناعاته، ونال شهرة لا بأس بها لدى أصحاب القرار في المنطقة، فسمحوا له بالانتقال في كافة البلدان

والأمصار المحيطة بالشام حتى وصل صيته للأستانة نفسها، وحقق من خلال ذلك غنىً ووطد وجوده حتى في القدس نفسها ، ورغم ذلك كان فيه عيب يشين أي رجل، كان شحيحاً بخيلاً ليس في المال ولكن في ما لديه من خبرات ومعلومات بخصوص صناعته، ولم يورثها أو يعلمها حتى لولده الوحيد ويدعى بنيامين، والذي ماتت أمه أثناء سفره في أحدى السفريات، ولم يتزوج بعدها لانشغاله الدائم في صناعاته وتجارته وسفره، وكان قد حضر ذلك المؤتمر الذي نوهنا عنه بعاليه وكان له دور محدد فيه وكانت معظم أمواله موجهة لتنفيذ تلك المخططات أملاً منه أن يكون له دور بارز في الحركة الصهيونية، عندما يحين وقت الحصاد، ولكنه في ظروف غامضة قتل يوسف اليهودي في طريق العودة من مزرعة اشترى محصولها من المشمش بريف قريب من دمشق، وحدث ذلك دون أن يعرف أحد من قتله وما سر مقتله رغم أنه كان دائماً مسلحاً، ولكن وجدوه مطعوناً بآلة حادة في قلبه ومسدسه في جيبه ولم يكن القتل مقترنًا بالسرقة لعدم وجود أموال معه والتي كان دفعها لأصحاب المزرعة التي اشتراها.

أصبح بنيامين ابنه وحيداً وهو الذي فقد من قبل أمه ، وكان في رعاية خادم وخادمة مسيحيين من سكان دمشق الذي كان يعيش فيها كمقر دائم ليوسف أبيه، وكان ذلك الشاب أنهى تعليمه الابتدائي في إحدى مدارس الإرساليات التي كانت متواجدة في

دمشق، فلما بحث عن ما تركه له أبوه فقد وجد أشياء كثيرة من مال ومن صكوك لعقارات في دمشق وفي مصر، وجد صكًا لبيت في القاهرة، ولكنه لم يترك له أسرار الصناعة التي كان يجيدها والتي كانت سر شهرته وغناه أيضاً، على عكس اليهود الذين يحرصون على نقل ما بداخلهم لأبنائهم، ربما لكون أن بنيامين هذا من أم غير يهودية الأصل بل تهوّدت بعد الزواج من أبيه يوسف بعد أن ضغط عليه اللوبي الصهيوني في هذا الأمر، فخاف أن ترتد من بعده لمسيحيتها ويتحول ابنها على ملتها، لكن القدر شاء أن تموت تلك المرأة قبله فلم تتحقق مخاوفه ولكن لم يتح له الوقت لتعليم ابنه أي شئ لضيق الوقت كونه كان دائم الانشغال في العمل والسفر، وانتهى الأمر ولم يعلم بنيامين نفسه تلك القصص، فظل على يهوديته الغير أصيلة من ناحية أمه وإن علم بأمرها باقي اليهود متتبعي النسل والنسب.

وتزوج بنيامين وأنجب ولداً أسماه يوسف على اسم أبيه وبنتاً أسماها راشيل، ضاقت به سبل العيش في الشام أثناء قيام الحرب العالمية الأولى وكانت تركيا أحد أضلاع المحور فيها، فتم التضييق عل اليهود في الشام بشكل استدعى هروب بنيامين وأسرته وغيرهم من اليهود من الشام إلى مصر والتي كانت تنعم الجاليات الأجنبية واليهودية فيها بالكثير من الحماية والاحترام والأمن، حيث كانت مصر وقتها تحت الحماية الإنجليزية وكذلك طبيعة الشعب المصري،

وساعده على ذلك أيضاً الصك الذي ورثه عن أبيه للعقار المملوك له في القاهرة ،ودخل القاهرة بمساعدة بعضاً من أقطاب اللوبي الصهيوني الذي قد بدأ بالفعل بالتكون في المنطقة بعد صدور وعد بلفور، أمدوه بالمال ليس عرفاناً بما فعله أبوه إبان بدايات الحركة الصهيونية، ولكن على أمل أن يقف على رجليه مثل أبيه فيحافظوا على عنصر فعّال يخدم الحركة نفسها، وخاصة أن العقار الذي اشتراه أبوه في مصر كان أسفله على كامل الدور الأرضي محلات ومخازن تفي بالكثير من الأغراض.

وعاش بنيامين وأسرته بالقاهرة ، وبدأ بممارسات تجارية ، قريبة الشبه بما كان يمارسه أبوه ، ولكن لقلة خبرته أو عدمها تتدهور حاله اقتصادياً، وبالإضافة إلى أنه كان به عيب غير محبب من بني جلدته وهو القمار وخاصة القمار على الخيل، الذي ضيع ما كان يجنيه من تجارته التي لا يجيدها، فكان يضيع منه رأس المال والربح أيضاً، وكان على أمل أن يكسب ولو حتى ورقة يا نصيب تغطي له ديونه التي زادت عليه وأصبح غير قادر على سدادها حتى الدائنين فقدوا فيه الأمل في انصلاح حاله، فتكاثروا عليه حتى سلبوا منه العقار وملحقاته وضاع عليه ما ورثه من أبيه، وكانت أسرته تقتات حياتها من معونة الطائفة كنوع من التكافل الاجتماعي بينهم، فسكنوا في إحدى شقق حارة اليهود بالقاهرة، تسمى الرباط اليهودى "كيبوتس" وتأتيهم المعونات من مأكل ومشرب وملبس

وتكاليف التعليم أيامها التي كانت بمصاريف بها بعض المنح الدراسية للمتفوقين منهم.

و لم يعد لبنيامين الشامي ــ كما أطلق عليه المصريون للهجته الشامية التي لم يغيرها على الإطلاق ــ عمل يجيده إلا تجارة البلح والتمر والتي كان يجلبها من صعيد مصر وسيوة، حتى يتخلص من آفة القمار الذي كان يدمنه، وإن ظل فيه هذا الداء رغم كثرة سفرياته وانتقالاته وراء محصول البلح، وكان التجار لا يصرفون له المبالغ إلا بعد تسليم البضاعة لسيرته غير الحسنة، ولكنه كان يصدق التعامل مع بدو سيوة وأهل الصعيد، خوفاً من بطشهم إن لم يسدد ما عليه من ديون لهم، وكان أكثرهم لايعلمون داءه لبعدهم عن المدن وخاصة القاهرة، فكانوا ينبهرون بمظهره الدائم التأنق والهدايا التي كان كثيراً ما يجلبها لهم، وكان دائم الحفاظ على شكله ومعاملاته معهم بشكل غير طبيعته، فكانت تلك الحسنة الوحيدة في حياته التي ساعدته هو على المستوى الشخصي ممارسة هوايته القاتلة وهي القمار الذي لم يستطع التخلص منه طالما كان بالقاهرة، لم تستفد منه أسرته مما كان يجنيه من أموال لضعف المكاسب من وراء تجارة التمر لانتشارها بشكل كبير وقتها، وكان الكثير من أصحاب المحاصيل يقومون ببيع محاصيلهم بشكل مباشر أو من خلال بورصة التمر التي تم إنشاؤها في ذلك الوقت أسوة ببورصة القطن زائعة الصيت عالمياً، وكان سعر القطن العالمي يحدد بسعر بورصة القطن

المصري، كما قلنا لم تستفد منه أسرته إلا بعد أن كبر يوسف ابنه وأنهى دراسته الابتدائية وأصبح يوسف أفندي، ونظراً لعدم وجود فرص عمل متوفرة بسبب الركود الذي ضرب مصر كاملة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كباقي دول العالم بأسره، لم يجد عملاً يؤويه، فأشركه أبوه في تجارته المحدودة تلك، سرعان ما تعرف يوسف على المهنة وأجادها، وإن كانت لا تحقق مربحاه لقلة العائد، ولكنه وجد طريقًا آخر سنتحدث عنه فيما بعد.

في أحدى سفريات بنيامين لأقاصي الصعيد لجلب التمر، ضربت المدينة التي كان بها وباء الكوليرا، فأغلقوا المدينة بحصار الحجر الصحي على من فيها و لم يسمحوا لأحد بدخولها أو الخروج منها مهما كان السبب، وظل بنيامين فيها حتى مسته العدوى ومات ضمن من ماتوا في تلك البلدة، و لم يؤثر خبر وفاته على أسرته أو اليهود من بني جلدته، وكأنهم ارتاحوا منه بالوفاة، فقد كان عبئاً على الجميع بسبب ما فيه من داء لايحبونه، فاليهود نشهد أنهم أهل علم ومال وعمل، قد يكون لتحقيق أهدافهم ولكن هم كذلك.

أما راشيل ابنة بنيامين وأخت يوسف فقد حباها الله بجمال ونالت قسطا من التعليم وأجادت العمل في الحياكة الحريمي التي كانت منتشرة في ذلك الحين وتزوجت من أحد أبناء الجالية الأرمنية الذين كانوا يعملون في هذا المجال ولكنه يقيم بالأسكندرية،

فانتقلت للإقامة مع زوجها، وظلت أمها بين التنقل من العيش مع ابنتها بالأسكندرية ، وبين سكنها بحارة اليهود مأوى ابنها يوسف كثير السفر بعد وفاة أبيه في ممارسة التجارة الخاصة بالتمر وغيره مما لا يعلمه الكثير وإن بدت عليه آثار الارتياح المالي بعد ضنك كان باديًا عليه، وكان باراً فعلاً بأسرته، ظهر ذلك جلياً من مساهماته في تجهيز زواج أخته راشيل التي كان يحبها حباً جماً ..

ثم انتقلت أمه للعيش كاملاً لدى ابنتها بالأسكندرية بعدما تدهورت حالتها الصحية وعدم وجود من يرعاها بسبب كثرة سفريات يوسف.

- لم يرث يوسف من أبيه موبقاته وداءه لعب القمار، بل كان فيه عيب واحد قاتل هو شراهته الجنسية وحبه للنساء وممارسة الرذيلة ولو أكثر من مرة في اليوم الواحد ومع أي أمرأة دون تمييز، المهم أن يفعل ولو في أي مكان، كان عيباً قاتلاً فيه منذ صغره ربما لنشأته داخل الكيبوتس الذي يختلط فيه كل شئ كما في المأكل والمشرب والملبس، وكل شئ داخله مغلق عليه تماماً لا يفشى خارجه سراً، مهما حدث فيه ، وما أكثر ما فيه هذا التجمع المغلق من نساء يتشوقن بشبق يقتقرن إليه لأسباب عدة منهن المنفصلات، ومنهن المفارقات والتي لايعلمن متى يعود أزواجهن ، ومنهن الأرامل اللتي في سن لايزال لديها رغبة في تلبية نداء الطبيعة ولكنهن محرومات،

ومنهن من لديهن مشاكل زوجية قد تكون صحية لدى أزواجهــن فلا يلبون حاجتهن بالشكل المطلوب ، كل تلك المشاكل المتواجدة في هذا المجمع المغلق ، وفي وجود فتى جلداً رغم ضــعف جســده ونحولته ولكن له فحولة تغطي كل تلك المتطلبات التي من حوله ، فأكسبته تلك الآفة الكثير من الملكات والخبرات لن تتوفر عند ذكر عادي، لتنوع النوعيات اللاتي يعاشرهن من ناحية السن والثقافات والأمزجة وحتى القدود والأوزان ، حتى أنه وصل لمرحــل الزهــد فيهن، فبدأ يجلب من خارج الكيبوتس بغرض تنظيــف الســكن وخاصة في الأوقات التي كانت أمه بالأسكندرية وتحديــداً عنــدما وضعت راشيل أبنها الوحيد بنيامين،وسرعان ما أكتشــفن نســوة الكيبوتس فعلته وتكرارها وقلة تلبية متطلبتهن ، فكــدن بــه وأن كيدهن عظيم – ولا مقارنة بين كيدن نساء يوسف الصديق عليــه السلام وكيدهن بيوسف هذا الفاسق الداعر، فوشــين بــه لــدى المسؤلين عن الكيبوتس حتى أوصلوها للحاخامات طلباً لإقامة الحد عليه طبقاً للشريعة اليهودية ، ولكن الأمر أنتهى بطــرده خــارج الكيبوتس ليسيح في الأرض ، دون سكن أو مأوى وعلمت أمــه وأخته بالخبر فآثرت أمه البقاء بالأسكندرية لدى راشيل خوفاً مــن الفضيحة التي سببها لها ابنها ، والغريب في ذلك الأمر أن أتيان هذا الأمر من قبل الرجال لدى اليهود فضيحة عكس النساءفهو أمــر عادي، ربما كون أن المولود ينسب لديانة أمه مهما كــان مصــدر

ذلك المولود أم الرجال ففعله هذا مؤثم وجالب للعار يظل ملتصق به طول العمر.

وعلى ذلك هام يوسف متنقلاً للسكن في أردئ ما يوصف بالسكنة وتجنبه كل اليهود على الأقل في موضوع السكنة تلك رغم ما لهم من عقارات كثيرة وكان السكان في هذا الوقت غير كافين لشغل تلك العقارت ونسمع على ما كان أصحاب العقارات من طلق البخور في تلك المساكن آملين في قدوم مستأجرين لها ، ومع ذلك ظلت سكنة يوسف شاغله الأعظم كونه أعزب ، وكذلك مواصفات السكن التي يبغاها لتلبية حاجته الجنسية التي تربى عليها كان لا تتوفر له باستمرار، فرغم رداتها، ومجرد ينكشف أمره حتى يطرد أشد طرده، وأعزو سبب المعاناة التي يجدها العّزاب ليوسف وأمثاله ، فكانت المعاناة كل المعاناة ليجد الأعزب سكن يأويه فأكثر يوسف من التنطع على المقاهي والخمارات الرديئة ومصاحبة من فيها من أرذال المجتمع ، من كافة الأطياف ، التي تزيده سوء على السوء الذي لديه وكانت حاجته الماسة للمال أسوء ما فيه وخاصة بعدما هجر زوج راشيل مصر كلها أفلاسه من المضاربة الخاطئة بالبورصة فأعلنوا إفلاسه وأضطر للهروب من الدائنين إلى جهة غير معلومة في أحد الأمريكيتين وأنقطع السبيل بهم لمعرفة مكانه ، وأنحدر حال تلك الأسرة و لم يبقى لأخته سوى الشقة التي كانت تقيم فيها بعدما حكمت الطائفة اليهودية بالأسكندرية على

أحد الدائنين اليهود بترك الشقة من أجل الطفل الصغير والجدة المسنة ، وإنكبت راشيل على ماكينة الخياطة مهنتها الأولى لتدبير الحاجيات المعيشية ، ولما أشتد المرض بأمها وزادت متطلبات العلاج عن الوارد من مبالغ نظير أجر الحياكة فكان لابد من أن تحمل يوسف بعضاً من تلك الأعباء ، ورغم صغر سنها وجمالها فقد كانت لها شئ من الحرية والإيمان فلم تلجأ لثديها، بل مارست كل الضغط على يوسف ليتحمل أعبائه ، لعله ينصلح حاله وكانت لها رغبة لهذا الإصلاح حتى يكون سنداً لأبنها الوحيد بنيامين والذي بدأت تظهر عليه ملامح ذكاء غير مألوف لمن هم في سنه من الأطفال ، فكان ذلك يزيدها إصراراً يوم بعد يوم عمل ما يسمى عزوة لذلك الطفل يركن إليها عند الحاجة ، ومن يكون غير خاله ، وكما يقول المصريون " الخال والد" ، وقد نجحت بعض الشئ في ذلك الأمر ، ولكن ما فهمه منها يوسف هو مسؤليته المالية فقط دون باقي الصلاح ، وأستمر في دعمه المالي على قدر إستطاعته حتى بعد أن توفيت أمهما ، فكيف تسنى ليوسف الحصول على المال المطلوب منه خلال الفترة التي مضت ؟ ، وكيف له تدبير ما طلب منه بعد ذلك وقد

ذاد الطلب رغم وفاة أمه و لم يقل كما كان متوقع ؟ ، وذلك بسبب إلحاق النابغة بنيامين بالمدارس منذ أن وصل عمره ثلاث سنوات بناءاً على نصائح وجهت لأمه للحفاظ على الثبات الذكائي

للطفل والمتزايد مع كل يوم وليس شهر يكبر فيه ، حتى أنــه بــدأ القراءة والكتابة قبل أقرانه من الأطفال . فمن أتى يوســف بتلــك المصاريف والتي سنوضح السبب الرئيسي فيها فيما بعد ولكن بعد أن نعرف هذا المصدر.

الفصل الثانى

الحَاجَةُ

الحاجة أم الاختراع مبدأ متعارف عليه لدى من يملكون، فما بال الذين لا يملكون ويحتاجون هنا تكون الحاجة مذلة، وخاصة من لايملكون سبل التغلب على العوز .

وهذا ما ينطبق على بطل قصتنا يوسف الشامي لم يتم طيلة حياته سبيل من سبل التغلب على العوز سواءاً كان في التعليم كما سبق وأوضحنا ، ولم يتعلم صنعة أو حرفة أو تجارة ثابتة يمكن أن يجيدها سوى ما تعلمه من تجارة التمر وما كان أكثر تجارها ومماريسيها وكذلك فساد تلك البضاعة التي تتأثر بسوء التعامل معها أثناء التجفيف أو المعالجة أو النقل والتخزين وما أسهل إصابتها بآفة السوس التي حتماً تؤدي لخسائر جسيمة مع كبر حجم البضاعة المتعامل عليها ، وإضافة لكل ذلك إفتقار يوسف لشيئين مهمين في تلك التجارة ، وهما رأس المال والمخزن ، فقد فرط أبيه فيهما بعيبه القاتل وهوكما قلنا لعب القمار ، فلم يترك له شئ سوء المذلة في العوز والحاجة ، ولكن يوسف بأمكانياته المحدودة ظل في مثل هذا العمل وإن لم يكن اليد الأولى في التعامل ، لذا كان ما يجنيه من مكسب أقل بكثير ، فكيف يتصرف يوسف في أمره ، وليس أمره فقط بل أمر ما ورائه من عائلة ، وقد نجحت أخته في شحن التجار اليهود وحتى المرابين منهم من مساعدته مالم يلتزم بسداد المقرر .

المادي لأسرته وكانوا يخصمونه في الغالب من المنبع ، خوفاً من حصوله على المكسب وعدم تسديد الواجب عليه لأسرته من إلتزمات.

كما قلنا حياة يوسف البوهيمية جعلته يتعرف على أرازل المجتمع المصري وقتها وهم تجار المخدرات التي كانت منتشر تعاطيها في هذه الفترة الزمنية بشكل مفزع ، ورغم ما به من مثالب إلا أنه لم يدمن أي من المخدرات ربما لشراهته في شرب الخمر بكل أنواعها ، ولكنه وجد ضالته فيهم من خلال تهريب المخدرات طي شحنات البلح والتمر الذي يتاجر فيهما ، فكان ينقل البضاعة حيثما يشا ء وفي كل الربوع ، فاهتم بتجارته الجديدة المربحة لحد ما دون الإهتمام بالغطاء الأصلي وهو التمور ، فلا أصبحت جودة تهم أو ماشابه بذلك بل أشتهر بأنه تاجر الأنواع الرديئة والتي ما يؤول كعلف للبهائم ف الغالب ، ولما كان الأمر لا يسلم من المشاكل التي قد تحدث من جراء تلك المهنة الشائنة الغير الآمنة على كافة المستويات سواءاً كان مع زبائن المهنة نفسهم من موزعين ومستلمين وقدر المشاكل التي كانت أن تحدث جراء طمعهم وجشعهم وقلة الضمير أو إنعدامه كلية ، إلا أنه قد سلم من ذلك البأس ، كما سلم لحد ما من تعرضه لرجال الأمن من خلال نقاط التفتيش التي يمر عليها وهو محمل بالبضاعة المؤثمة المجرمة ، ربما لحذاقته في إخفاء بضاعته المسجاة والعطن الشديد وسوء البضاعة الخاصة بالتمر أو البلح ، وكان يتعمد ذلك كلما كانت لديه ثمين

من البضاعة المهربة ، فكان التفتيش لا يستمر إلا دقـــائق معـــدودة دون تدقيق فيها .

ولكنه في أحدى المرات كاد أن ينكشف أمره ، وكان ينقـــل بين البلح أكياس تحتوي على مخد رالكوكايين الذي كان منتشـــراً وقتها وحدث ذلك في أحد نقاط التفتيش داخل سيناء بالقرب من مدينة العريش ، ولم يتنبه لما فعلته الجمال التي كان ينقل عليها التمر أنها أكلت جزءاً من طرد البلح المحمل على أحدهن بأحد تلالـــيس (جوال كبير من قماش قوي له حبل في أعلاه يغلق به ويعلق منه مع نظير له على جانبي الجمل فيجعل الحمل متزناً) وكان قد حدث به قطع بواسطة أحد اللصوص وذلك في محاولة سرقة فشلت وخيبـــة أمل السارق عندما أكتشف أن البضاعة نوع سيئ ورديئ من بلـــح معطب ، فعفت نفس السارق من حتى الأكل منه ، وحدث ذلـــك عندما كان يوسف الشامي مشغول داخل أحـــد الحانـــات علـــى مشارف مدينة العريش لأحتساء البوظة بديلاً عن الخمر لعدم وجود خمرات في تلك الناحية من المدينة ، وبعدها أكل أحد الجمال بعضاً من ذلك البلح فكشف المخبأ من أكياس المخدر ولو ينتبه الحادي أو يوسف للأمر إلا في نقطة التفتش تلك أفراد الدورية الموجودة لاحظ ذلك ولكنه أستولى على الأكياس دون علم باقي أفـــراد الدوريـــة وخباءها في جيوب معطفه الجوخ كبير الحجم نظراً لشدة بـــرودة الجو في تلك المنطقة الصحراوية النائية في مثل ذلك الوقت من السنة في شهر يناير تحديداً ، حدث ذلك وكان يوسف مضطرباً وكـــان

يتبادل النظرات مع فرد الأمن هذا الذي لا يعرفه ولا يعرف حـــتى رتبته بسبب المعطف الذي يرتديه ، ولكنه آثر السلامة والســـكوت حتى لاينفضح أمره وينفضح باقي الحمولة التي معـــه في التلالـــيس الأخرى ، وكان ذلك الرجل ينظر ليوسف نظرات قدر ما أخافتـــه قدر ما أطمئن منها أنه لن يفضح أمره ، وقد مرت القافلة بســـلام من نقطة التفتيش تلك وكانت لازالت ترتعد ركب يوسف لـــيس من البرد القارس بل من شدة وجله جراء ما حدث ودارت في مخيلته لو أن الأمر سار على نحو آخر غير الذي سار عليه وكشف أمـــره وأمر البضاعة ذلك الرجل ، وقد أوعز يوسف تصرف الرجل على هذا النحو لجشع ذلك الرجل وطمعاً في جزء من البضاعة .

وما إن حاول أن ينسى أمر ما حدث وهو سائر على راحلتـــه حتى عاوده الخوف مرة أخرى عندما وجد مركبة البة وليس تجـــدّ في سيرها للحاق بالقافلة ، فأرتعدت فرائص يوسف ، وجـــال في خاطره وساوس كادت أن تعصف بأعصابه ، حتى توقفت القافلـــة عندما قطعت عليها الطريق مركبة البوليس ، ونزل منـــها ذلـــك الرجل المجهول والذي كان يتفحص وجوه كل من كان في القافلـــة حتى إلتقى بوجه يوسف الذي زاد شحوباً والعرق يتصبب منه من الخوف والهلع ، هل أوشى به هذا الرجل ؟هل عاد ليأخـــذ كـــل البضاعة التي معه ولم يقنع باللفافات التي وجدها في التليس المقطوع ؟ ، أم سيقبض عليه ويسلمه للمخفر القريب ، كل ذلك كان يدور في خاطر يوسف ، ولم ينتهي منه إلا عندما طل الرجل المجهـــول في

وجهه ، ودون أن ينبس ببنت شفة وأعطاه ورقة مكتوب بها عنوان واسم رجل في القاهرة ، وتركه ومضى ، وسمح للقافلة بإستكمال السير والكل في دهشة مما يحدث ، أخذ يوسف الشامي الورقة وظلت في يده ، ولم يقرأ المدون فيها ، حتى عادت القافلة للتحرك وبدأ نور الفجر يتسرب الهوينة ، ويوسف على حاله من الدهشة أقرب للصدمة العصبية ، ولكن عادت إليه جأشة نفسه ورباطها عندما قرأ العنوان والأسم المكتوب في الورقة، بل أنفجر في الضحك بشكل هيستيري ، ذاد من دهشة باقي أفراد القافلة والذين أوعزوا ما يحدث لصاحبهم قد يكون من أثر البوظة التي شربها بالمخور الذي كانوا فيه أول الليل ، ولم يعلقوا ولم يفسر هو سبب ضحكاته المتوالية المتقطعة أحياناً ، ترى ما الذي أضحك يوسف الشامي على هذا النحو؟ وماهم ذلك العنوان ؟ ومن هذا الرجل المدون أسمه بالورقة التي أعطاها له ذلك الرجل المجهول الغامض الذي لا يعرفه ولن يراه بعد ذلك في مصر مرة أخرى ، ولكن صورته ستظل عالقة في ذهن يوسف .

أما العنوان فقد كان لأحد المحلات الشهيرة ببيع وتصليح الساعات بوسط البلد والأسم المكتوب بالورقة أسم مالك المحل وهو يهودي مشهور ليس للطائفة اليهودية فقط بل لكل المصريين ، وليس كونه مربياً وبخيلاً فقط بل لواقعة أصبحت شهيرة تندر بها الجميع وتحولت من طرفة إلى نكته خلدت مع مر الزمن ، فذلك الرجل هو "كوهين الساعاتي" يعمل في تجارة الساعات بكل أنواعها

وأحجامها وأشكالها ، وكذلك يقوم بإصلاح ما يتلف منها ، رغم ما يحقق له هذين الأمرين من مكسب وأرباح إلا أنه أشهر مرابي في بر مصر ، كما أنه مشهور لدؤبه الذي لايكل ولا يمل من طلب المدين له في سداد الدين حين يحين أجل السداد ولايتركه حتى يتحصل على الدين أو يعيد جدولة الدين بفائدة وكمبيالات جديدة ،طاما أنه يوقن في قدرة المدين على السداد ، وفي الحالة الأخرى لا يترك المدين إلا بعد الأستيلاء على ما يوازي قيمة الدين وفوائد الربا ويزيد عنها ، ورغم كل مل يضيع منه من وقت ، إلا أنه يجدّ في الألتزام بمواعيد تسليم الساعات المراد تصليحها ويقوم دون تأخير فقد كانت حياته دقيقة مثل الساعات التي يمتهنها، كانت شدة بخله هي أكبر آفاته ليس على مظهره ومأكله فحسب ولكن حتى على أسرته قليلة العدد ، وكأنه مارس بخله على ذريته أيضاًفقد أنجب ولدين فقط وكأنه فرح عندما ماتت زوجته أثناء ولادة مولودها الثاني ، حتى تكف عن الخلفة ، ولم يتزوج بعدها ، لا ذهداً في النساء بل لرفض كل النساء سن بني جلدته من الأقتران به بعد أن تفشى خبر بخله بين كل الأوساط ، وكانت قمة بخله التي أصبح بعدها أمزوحة ضاهت سيرة أشعب وجحا ، وحدثت عندما توفى أبنه الأكبر ، نتيجة مرض ألم به ولم يعرضه على دكتور متخصص بل فضل أن يعطيه وصفات بلدي وأسبرين من النوع الرخيص ولكن المرض اشتد بذك الفتى فقضى نحبه ، وبكاه ولامه كل من عرف بقصة مرض ذلك الشاب وبخله في علاجه ، فلما ضغطت

عليه أفراد طائفته ليكفر على ما فعله وحكموا عليه أن ينشر نعياً بأحد الجرائد المشهورة ، وأمام ألحاحهم في هذا الأمر ذهب بالفعل لتلك الجريدة لينشر النعي ، وتعرف على طريقة الحساب مقابل الأجر على نشر النعي ، وعرف أنها بعدد الكلمات بحد أدنى منها ، فإن قل كان نفس الأجر وإن ذاد دفع أكثر ، وبعد مساومات عديدة حتى وصل لأدنى سعر فأتفق عليه وسدده ولكن وجد أن له الحق في إضافة كلمتين للعدد الذي يصل به لذلك الحد الأدنى فأما يكتب النعي بهما أو دونهما فلا أثر على تغيير السعر فقد كان النعى على هذا النحو :

"كوهين الساعاتي ينعي ولده عزرا"

ويمكن له أن يضيف كلمتين أخريين بنفس المقابل الذي سيدفعه فأصر على أضافة الكلمتين حتي يستفيد أكبر استفادة

فخرج النعي ونشر بالجريدة على هذا النحو :

"كوهين الساعاتي ينعي ولده عزرا ويصلح الساعات"

فأصبح ذلك النعي من وقتها أكبر أمزوحة ونكته تتداولت في كل العصور .

هذا ما كان يسبب الضحك المتواصل والمتقطع أحياناً من يوسف بعد أن قرأ الورقة، ولكن سرعان ما هدأ تماماً وأستعاد كل جوارحه وأشعل سيجارته وأخذ ينفث دخانها بتروي وكأنه يعيد ترتيب فكره الذي كان في شتات من واقع كل ما حدث في تلك الليلة ، فهو يعرف كوهين هذا كل المعرفة ، ولجأ كثيراً له في طلب

المال عندما يكون في حاجة له لشراء أو توريد ثمن البضاعة التي يجلبها قبل تطوير نشاطه ، وكان يعطيها له بالربا أيضاً وإن كانت بنسبة ربوية أقل ليهوديته التي ترحم الربا بين اليهود بعضهم لبعض ، شريطة أن لا يخبر الطائفة بذلك حتى لا يتعرض لعقاب منهم ، ولكونه مخاطر فكان يمول يوسف بما يحتاجه في أضيق الحدود ولكنه لم يلجأ إليه بعد أن طور نشاط تجارته على النحو الذي بيناه ،ولكن لم تنقطع عنه أخباركوهين كون أن أبن كوهين كان نداً ليوسف في السنو يدعى "   " وكثيراً ما يلتقي به مع بعض أصحابه من شباب اليهود الأخرين لدى عائلة صروف أفندي والذي كان ملتقى يكثر فيه الأحتفالات بسبب أو بدون سبب وفي المناسبات والأعياد الدينية وكثر فيها ما لذ وطاب من مأكل ومشرب لغرض غير معلوم إلا لخاصة من اليهود وليس كل اليهود ولكن كان باقي اليهود والشباب منهم ينهلوا من مبتغاهم دون التركيز على ما يحدث من أمور أخرى من إجتماعات مغلقة أو مفتوحة يتم تداول بعض من التعابير الجديدة وتعاليم حديثة جاءت من رحم الصهيونية ، ككلمة أرض الميعاد والبيت الكبير وخلافه من المسميات الرمزية التي قدلا يعلمه الكثير ولكن عند الإستفسار عنها يتم الشرح له ، فكانت تستهوي من هوى ولا يضر من لايهوي ، المهم كان في تلك اللقاءات بالنسبة ليوسف هو المأكل والمشرب وبعضاً من اللهو إن سنحت له الظروف وخاصة أيام الضنك الذي كان يعيش فيه ، بالطبع كان من ضمن من يلتقيهم ذلك الشاب أبن صروف نفسه

ويدعى "اسحق" وكانوا يطلقون عليه الثعلب ابن الثعلب ، لم يكن ودوداً بالشكل الكافي ولكنه لم يكن فظاً كذلك ،ويمارس لهو الشباب ولكن بتودة، تظهرأن له سمة قيادية يأُهل لها .

غلب يوسف النعاس أثناء التفكير ذلك وهو داخل راحلته ولم يقلقه من منامه سوى أنه تذكر أمر اللفافتين اللتين استولى عليهما الرجل المجهول، فماذا سيفعل نتيجة فقدهم؟ فقد يشك مستقبل البضاعة فيه ، ولن يصدق أن تختفي لفافتين دون باقي البضاعة وخاصة أن البضاعة تلك غالية الثمن وليست كالحشيش أو الأفيون ، راح الشيطان يلعب بأفكاره وخاصة أنه يعلم قسوة هؤلاء النوعية من البشر في التعامل على بضاعتهم فما أرخص من ثمن حياة أي إنسان لديهم يمس بضاعتهم ، ولكنه قرر أن يحكي ما حدث وليحدث ما يحدث .

وصل يوسف الشامي بالبضاعة التي معه وما فيها من خبية ، قام بتسليمها إلي الجالب الذي كان في إنتظاره ، وكما توقع يوسف من شر سيلاقيه من جراء فقد اللفافاتان ، ولكن القدر كان رحيماً به بعض الشئ فقد حجب الجالب للبضاعة مستحقات يوسف نظير أن يرد هذين اللفافتين خلال يومين أو يرد قيمتهما المالية وإلا سيكون مصيره معروفاً للعاملين في ذلك الكار ، وخرج يوسف ممتناً بعض الشئ أن أمهله القدر ذلك الحل فالمهم لديه هي حياته ، وهو متعود على الحياة تحت ضغط ، و إن كان أصعبها لديه هذا الضغط الذي قد يودي بحياته للتهلكة ولكنه حتماً سيجد حل، وكان الحل في

إنتظاره عندما توجه للعنوان الذي كان نكتوباً في الورقة التي أعطاها له الرجل المجهول ، فبمجرد دخوله المحل ولقاء الخواجة كوهين الساعاتي، وقبل أن ينتهي من كلمة " شلوم" حتى أسرع كوهين مشيراً ليوسف لسرعة الدخول لمخزن المحل من خلال باب جانبي في المحل وقد سبقه كوهين للولوج إلى داخل ملقياً الساعة التي كانت في يده وكان يصلح أمرها على غير عادته والذي كان لايترك ما فيه ولا يتحدث إلا بعد أن ينتهي مما يعمل فيه ، ولكن هذه المرة تخلى عن عادته ، ترى ما السبب في ذلك ؟

ما أن دخل يوسف خلف وكهين وليى طلبه في غلق الباب خلفه وكان قد وصل كوهين بخطواته المسرعة المضطربة لأخر المخزن وتحيداً لمكان خفي منه ، وإلا قد سحب لفافتين وألقاهما ليوسف الشامي وأمره بسرعة الخروج من المحل والمخزن ، منددا بمحتويات اللفافتين خائفاً من التورط فيهما حيث أن محله له سمعة طيبة يخاف عليها من مثل تواجد تلك البضاعة فيها ، وأنه لايتحمل السجن من أجل سواد عينيه ، وقد لعن كل الموضوع وسببه والمتسبب فيه ، وكان يطالب يوسف بسرعة الخروج وهو يكيل له اللعنات ، وإذ به يستوقف يوسف وهو على شرفة المحل آمراً أياه بضرورة الذهاب لبيت صروف أفندي يوم السبت القادم مساءاً وحذره من مغبة عدم الذهاب . وخلاج يوسفاً مسرعاً فرحاً لأنه يعرف اللفافتيت اللاتي بين يديه أنهما تلك اللفافتين المسلوبتين من البضاعة التي كانت سيتسبب فقدهما في فقد حياته نفسها، وأمام فرحته بهما لم يسأل

الخواجة كوهين عن كيفية تواجدهما لديه ، فهو يعلم أنه لن يجد إجابة للسؤال في هذا الموضوع مهما كان الأمر فلا داعي لتضييع الوقت ، فآثر الإنصراف والعودة لصاحب البضاعة حتى يستلم مستحقاته ، ويحصل على صك البراءة من تهمة التصرف أو الطمع في جزء من البضاعة ، فكل ما يهم جالب البضاعة هو إستلامه لكامل بضاعته ، وهاهو الأمر أنتهى بسلام وقد كان الأمر وأنتهى ، مع التحذير الشديد من عدم إعادة الكَرة والإستهوان بالأمر في المرات القادمة ، إن استمر التعامل معهما .

وانطلق يوسف مسرعاً بعد أن نال مراده المادي قاصداً الأسكندرية ، حتى يسدد ما عليه من إلتزام مادي تجاه أخته ، وكذلك يسعى للهو دافئ بالأسكندرية في مثل ذلك الوقت من العام ، ولم يكن موعداً للنواها ، فكان الطقس عبقرياً يجتمع فيه الدفء والجمال والنظافة ، أما أماكن اللهو فيها عامرة من كل وجوه اللهو بل أكثر من القاهرة نفسها لوجود جاليات أجنبية وغنية ، وإن كان هناك ما يؤرق الناس فيها من وجود عصابة متخصصة في خطف النسوة ولكن لا أخبار عن العثور عليهن أو عن تلك العصابة التي ذاع صيتها وكثر الكلام النظري عليها دون بيانات دقيقة لا على العصابة ولا النسوة اللائى إختفين ، وكانت السيرة في هذا الموضوع له الشغل الشاغل للناس ما إن يتم ذكر الأسكندرية ، فإتجه يوسف إلى الأسكندرية حتى يطمئن أيضاً على

أختيه التي دائمة التردد على أسواق القماش وزنقة الستات وكان هذين المكانين من الأماكن التي يختفين فيهن النسوة .

وبالفعل قضى يوسف بالأسكندرية يومين قضى فيها كل وطره من مهام وآثام ، وعاد إلى القاهرة مستعداً للقاء المقرر له يوم السبت في بيت صروف أفندي مساءاً والذي شدد عليه الخواجة كوهين الساعاتي من ضرورة الحضور محذراً لإياه من عدم التخلف مهما كان الأمر .

وحانت الوقت ودخل بيت الخواجة صروف ، وكان ما كان ، والذي سيقلب حياة يوسف رأساً على عقب .

دخل يوسف الشامي بيت الخواجة صروف من الباب الرئيسي المؤدي على بهو شاهق الأرتفاع وفي آخره ذلك السلم المعلق في الهواء بل أي ركيزة والذي يؤدي إلى الأدوار العليا من خلال درج يجمع بين الفخامة والجمال والذوق وكأن مصممه المعماري وجد حلاً لتلك المعادلة الصعبة ، رغم تردد يوسف على بيت صروف فندي أو الخواجة صروف كما كان ينادينه كافة أطياف الشعب المصري والمتعاملين معه بذلك الأسم إلا أن يوسف لم يصعد على هذا السلم ، فقد كانت كل لقاءته في ذلك البهو الكبيرالموجود في الدور الأرضي ، والذي حوي كل الخدمات المطلوبة وذلك تحت الفراغ الناشئ من إرتفاع السلم الضخم ، ولكن هذه المرة ، فقد طلب منه الصعود لأعلى ليرتقي ذلك السلم وأحس كأنه يصعد ألى السماء ، فعلى غير الطبيعة وجد البيت خالياً تماماً من الضيوف تلك

السمة التي إرتبطت بذاكرته عند القدوم لذلك البيت ، وإن بدا لــه موحشاً بدون الضيوف ولكن ظهرت به أكثر مظاهر الثراء ، وكان الخادم ذي الهندام المتأنق في إستقباله وطلب منه التفضل بالصــعود لأعلى حيث أن صروف أفندي ينتظره في مكتبه الخــاص بالــدور الأول العلوي وسار أمامه محافظاً على بعد بنيه وبين الضــيف ، لا يزيد أو ينقص ، حتى إنتهى السلم وولجا لطرقة ثرية الفراش والثريا وبها تقاطيع عليها رسومات ونقوش زخرفية غاية في الروعة والجمل من ناحية ألوانها وموضوعاتها ، وود يوسف أن يستمر حتى يصــل لآخر تلك الطرقة ولكنه لم يفعل كون أن غرفة مكتــب الخواجــة صروف بابه قبل أول قاطوع عليه ستارة ليست مسدلة بالكامــل لتحجب الرؤية عن ما ورائها ولكنها معصوبة من منتصفها علــى جانبي القطوع فزادت من رونق تلك الطرقة وكأنها أمرأة كادت أن تستحي لتخبأ فتنتها ولكنها لم تفعل فتزيد من الشوق لرؤية مــا لم تحجبه .

وقف الخادم المتأنق وقفة حرس الشرف أمام باب الغرفة المغلــق ودق عليه دقاتين ، فأتاها من داخل نداءاً يسمح للضــيف فقــط بالدخول فأنحنى الخادم برشاقة مشيراً ليوسف بالتفضل بالــدخول ، بعد أن فتح له الباب وما إن دخل يوسف حتى أعيد غلق باب مــن تلقاء نفسه دون تدخل من أحد .

هال يوسف منظر وجمال محتويات الغرفة التي تنتهي بعد عــد وافر من الصالونات والأنتريهات والتي تفصلهما منضدة كبيرة عليها

كراسي لها كسوة جلدية ذات لون أخضر داكن زاد من رونق ديكور الغرفة وألوها والتي إشتقت من درجات الأخضر بكل أنواعها مع مزج بعض اللمسات البنية والمحيطة بكتلة باللون الفيروزي على شكل أقرب للجعران ، فينبأ على مغزاه الوارد من الرسوم والكتابات الفرعونية ومعناه الأبدية والديمومة والعظمة في آنٍ واحد ، منظر أكثر من مبهر ومبهج .

رغم ما يراه يوسف من جمال حوله لم يلحق أن يسترسل فيه وقد جاءه صوت الخواجة صروف من أحد الأجناب المفروش فيها أنتريه ذو الكراسي الرحيبة ،فألتفت يوسف نحو الصوت لكون أن الإضاءة خافته إلا من بعض بيوت للنور الكهربي في الحوائط غير مرئية ، فأتجه ناحية الصوت ، فوجدا شخصين آخرين جالسين على جانبيه ، لم يعرفهما ، وطلب منه الجلوس أمامهما مباشرةً وكان الضوء يكاد أن يرى ملامحهما التي لم يتعرف على أحدٍ منهما .

وبدأ الخواجة صروف بالحديث موجهاً القول ليوسف ، معرّفاً ضيفيه على يوسف، شارحاً نسب يوسف تحديداً وتفصيلاً ، وكأنه يشرح لهما نبل وقداسة ذلك النسب صافي اليهودية من الأجداد إلى الأباء أماً وأباً ، هنا أحس يوسف بأن الجالسين أمامه ماهما إلا ذوي مناصب إما دينه أو سياسية ، وأستبعد الأول لعدم نصاعة تاريخه ، فلايمكن أن يتتبعوا نسله والكل يعلم ذندقته هو وأبيه من قبل وهذا الموضوع مهم في المهام الدينية ، وتأكد حدسه – أهما من النوع الثاني – بعد أن أنهى حديثه الخواجة صروف وأشار بشكل غير

مباشر و بغير وضوح عن ذندقة وسوء أخلاق يوسـف بعبـارات ليست صريحة ولكن يفهم من باطنها المعاني التي يروم إليها ، وكانا الضيفين منصتين كل الإنصات لصروف أفندي الذي على وشـك أن يمنح البكوية ، دون أن ينطقون .

وقام الخواجة صروف من جلسته تاركاً ضيفيه ليوسف معلنـاً عن إنتهاء مهمته ، ولكنه ظل في غرفة المكتب إتجه نحو مكتبه .

ظل فترة قليلة من الوقت منذ أن ترك المجلس الخواجة صروف ، أثناءها أحس يوسف بالوجل من هيبة الجالسـين معـه ، وود أن يتحدثا حتى يعرف من هما ؟

ولكن هاله أول المتحدثين ، فقد تحدث بلغـة غـير عربيـة أو إنجليزية ولا حتى فرنسية أو إيطالية ، فيوسف يعلم الكثير منهم قـد لا يكون كامل المعرفة ولكنه قد يفهم بعضاً مما يقال بتلك اللغات ، أما ما تحدث به الضيف الجالس ، فقد تكون لغة ألمانية ، وبالطبع لم يفهم من ما قاله شئ ، ولكن سرعان ما تحدث الرجل الثـاني ورد على ما قاله بنفس اللغة ، وقد ظهر من صيغة الحديث الذي دار بين الأثنين باللغة الألمانية أن الأول يستفسر عن شـئ يقلقـه ، ومـن سلاسة الرد الذي تم من الثاني نعلم منه أن في رده عليه نوع مـن الرجاء .

وهنا قاطعهما يوسف مستفسراً عن من يكونا هؤلاء البهوات ؟

فرد عليه الرجل الثاني رداً مباشراً بأننا من أعادنا لك اللفافتين اللاتين كانتا ستفقد الحياة بسسببهما أو على الأقل أنه كان يمكن أن تضبط كامل الشحنة التي كانت بالقافلة بين تلاليس البلح .

هنا خفض يوسف رأسه وكأنها كادت أن تصل إلى الأرض، فلولا ما تم لكان بالفعل في عتاد الأموات ، وأمره بأن يرفع رأسه ويستمع لما يقال له من تعليمات ، وعليه حفظها عن ظهر قلب كما التلمود وعليه التنفيذ الكامل بدقة متناهية ، طالما أرتضي بأن يعمل في التهريب ، فليرتقي في ذلك العمل وسيكون له كل الدعم وأن يثق فيمن سيعمل معهم في هذا الأمر من خلال محترفين ، وأن يدع العمل العشوائي الذي كان يقوم به من قبل ، على ألا يعود إليه مرة أخرى ،حتى ولم يعمل لمدد طويلة ، وسينال ريعاً مجزي سواء كان هناك عمل أو لا ، فهم يعرفون كل شئ عنه وعن من يعوله وكذلك ميوله ، وسيتم الإتصال به بشكل سيتفق عليه فيما بعد ، وسيتعرف على من سيعمل معهم ، وأن هناك من سيكون مسؤلاً على تلك العمليات عليه الطاعة كى الطاعة له ، ومنحاه ظرفاً مغلقاً به كم لابأس من النقود ، على أساسه يكون بدأ العمل معهم ، كما رفضوا أطلاعه على أي معلومات أخرى وأكدوا عليه عدم السؤال وأن ما أن العمل معهم يتطلب سرية كاملة ، لايمكن البوح بها لأي سبب من الأسباب .

وانطلقا مغادرين المكتب ومن ثم البيت بعد تحية صاحبه صروف أفندي ، وكان يوسف يتطلع عليهما من الشباك الخاص بالغرفة

. والمطل على حديقة البيت وإستقلا سيارة فارهة بها سائق فتحا لهما الأبواب الخلفية للسيارة وعلم من أداء السائق أهمية كل منهما وذلك من خلال ترتيب التركيب ، فبدأ بالضيف الأجنبي ، ثم تلاه الآخر.

وذهل يوسف من المبلغ المسلم لإليه داخل المظروف لكبر قيمته وتكاد أن تكون قدر ما تحصل عليه طوال الفترة السابقة ، ولازال صروف قابع خلف مكتبه وينظر من تحت نظارته المخصصة أصلاً للقراءة على يوسف مختلساً النظرات إليه وهو يعد المبلغ إياه ، وعندما إلتفت إليه يوسف أشاح ببصره داخل كومة الأوراق التي كانت أمامه لإيهام يوسف أنه لادخل له ولا يعرغ ما يحدث .

وعندما حاول يوسف الاستفسار عن ماهية الضيفين ، أدار صروف له ظهره من خلال لف الكرسي الذي يجلس عليه ، دليل رفض الإجابة عن السؤال وذكره بما قالوا له "لا تسأل عليك فعل ما تأمر به" ، قال له هذه الكلمات وهو معطي له ظهره ، وكأنه يقول "المقابلة إنتهت" وخرج يوسف مسرعاً من بيت صروف أفندي وقد إلتقاه ابن صروف والذي تواعد معه على اللقاء ليلاً في ذلك البار الموجود بشارع عماد الدين ، وكان ذلك على عجالة من أمرهما ولكن و أذهل يوسف علم ابن صروف من خلال تلك العبارة التي قالها بعد المواعدة (جيبك بقى عمران ياسيدنا) ، وكان من قبل يزدريه ولا يلقي له بالاً على الإطلاق والحال الآن تبدل .

ارتاح يوسف مادياً تمام الإرتياح و لم يشغل باله بموضوع جلب النقود بأي شكل من الأشكال كما كان في السابق ، فقد كان يجد لدى صروف بمعدل كل أسبوع مبلغ من المال لا بأس به ، يرسل ما تطلبه منه أخته راشيل ، والباقي يحتفظ به لنفسه لزوم لذاته وملذاته . ، وإن طلبت راشيل إي مبلغ أكبر نظير مصاريف التعليم لابنها بنيامين فقد كان يبلغ الخواجة صروف به وعندما يتحقق الثاني من هذا الأمر يرسل صروف بنفسه المبلغ لراشيل مباشرةً وكان يتم خصمه بالتدريج من الراتب الأسبوعي الثابت المخصص ليوسف ، وحتى إذا إستدان هو كان يؤجل السداد لبدأ الأسبوع التالي ، صارت على هذا النحو أحوال يوسف ومضى عليه أكثر من ستة أشهر و لم يقم بأي عملية حتى الآن ، حتى أنه ملَّ من قلة العمل ، رغم أنه أستأجر شقة كاملة مجهزة ومفروشة في إحدى عمارات الخواجة صروف نفسه وذلك في شارع عماد الدين (مسقط الفن واللهو والمجون بالقاهرة في ذلك الوقت) ، وعندما حاول الإستفسار عن أمر تأخر العمل وذلك من خلال صروف بك الذي قد حصل على البكوية بالفعل نهره بشدة ،وأنه لايعلم أي شئ عن ذلك الموضوع إطلاقاً محذراً إياه من التحدث في هذا الأمر مطلقاً معه مهما كانت الظروف الكل يؤدي عملاً يطلب منه فقط دون أي سؤال كما أفهمه أنه لا يعرف أي شئ ولا طبيعة ذلك العمل فأنه في الأصل لم يكن جالساً معهم وقتها ، فلا دخل له بتلك المواضيع، وكان كل ذلك بلهجة آمرة وغاضبة ، حثاً له لعدم تكرار الأمر .

وهكذا صارت الأمور حتى أنه في أحد الأيام ، وقت العصرية موعد يقظته من نومه ، بعد السهرات التي تتصل بنور صبح النهار،فقد فوجئ بوجود شخص يجلس عل البار الموجود بالشقة بصالة المدخل ، و لم يلتفت له عندما أحدث جلبة أثناء تخبط خطاه الغير المتزنة جراء الصداع الذي يشعر به نتيجة كثر الخمر الذي إحتسها الليلة السابقة ، والذي لا يعرف كيف دخل هذا الرجل الشقة من الأساس ، ولكنه أطمئن حين رأى إنه إسحق أبن صروف ، وقد أمره بسرعة التنبه وإفاقة نفسه والتجهز لكي يعي ما سيطلب منه ، وقد لبى على الفور فأخذ حمامه وأعد كوباً من القهوة السادة حتى يفيق تماماً .

وجلس يصنت لما قاله له إسحق وأفهمه ما هو المطلوب منه من تحركات فقط ، هذه ما لديه من تعليمات ولا مجال للسؤال سيجد كل الإجابات في وقتها مع من سيقابلهم ، وأعاد على سمعه التعليمات مرتين متعمد فيها الكلام ببطأ شديد آمراً ياه إعادة نطقها عليه حتى يطمئن للتفهمه تلك التعليمات،كما علم أن هناك سيارة لوري ستكون تحت أمرته بها يتحرك وبها يسافر وبها يتم كل ما يؤمر به ، وشرح بن صروف كامل التحركات والأماكن التي سيذهب إليها ومن سيقابل وسيجد مع من يتقابل كل التفاصيل ، وخيّره في رفيق يكون معه ، ممن يعرفهم ويثق فيهم من بين ثلاثة أسماء أستعراضها عليه ، فاختار منهم "حليم" أبن كوهين الساعاتي ، ولما همّ يوسف بالضحك عند ذكرحليم نهره إسحق عن التلميح

بشدة ، مانعاً إياه من الأسترسال في هذا الأمر مذكراً إياه بأفعالـه هو نفسه وأبيه وذلك دون ذكرها فعاد الجمـود لوجـه يوسـف وكانت تلك رسالة أيضاً له أن الأمرة بيد أسحق ابـن صـروف، وعليه إطاعة الأوامر ، ولما حاول يوسف معرفة ما طبيعـة العمـل الذي سيقوم به ، هاج مرة أخرى عليه إسحق كما هاج عليه أبيـه صروف من قبل ، مهدداً إياه بعدم صلاحيته لهذا العمـل لنسـيانه الدائم للأوامر ، فإغتذر يوسف لإسحق أنه لن يعود للسؤال مـرة أخرى مهما كان ، ولن ينسى بعد اليوم ، وكانت تعليمات السفر والتوجه إلى أسوان في فجر اليوم التالي وعليه التجهيـز لـذلك ، وسيجد في السيارة كل مستلزمات السفر من مأكـل ومشـرب وخلافه وهناك سيجدوا من يعثر عليهم .

لم يتوقع يوسف أن سيكون الوضع الجديد على هذا النحـو ، فقد وجد السيارة اللوري المسلمة إليه احدث موديل وذات حملـة كبيرة لم يرى مثلها إلا لدى الجيش الأنجليزي وكانت ألمانية الصنع ، كما وجدها محملة من الداخل بكل ما يتخيله أو يحلم به من زاد ومؤنة من مياه وأكل وخمور ومعلبات تكفي لأكثر من شهر ، فهم ثلاثة هو وحليم ابن كوهين والسائق ، هو يهودي أيضاً ولكنه مـن أصول مغربية ، لا يفقه الكثير عن العربية ويجيد الفرنسية بطلاقة ، كما انه يجيد السير في الصحراء ومعرفة الإتجاهات بهـا ، وتحديـد المواقع على الصحراء بألات بدائية الصنع ، وكان ذلـك سـبب مشاركتهما تلك المهمة والمهمات الاخرى فيما بعد .

وفي الموعد المحدد أنطلقت السيارة اللوري متجهة إلى أسوان ، ورغم حداثة السيارة وقوة موتورها والتي كان يشرحها السائق بالفرنسية التي — إلا أنه لايسرع بالسير ولا يخاطر ، وكانها تعليمات لديه بذلك ، وبعد اربعة أيام من السفر المتقطع وذلك بغرض الأستراحة وتحميل السيارة ببضاعة تمر وبلح وذلك من خلال عبوات مخصصة كانت بالسيارة ، وكان ذلك طبقا للتعليمات التي وجدها مكتوبة في ظرف مغلق كان بالسيارة و لم يتم معرفة مكانه أومحتوياته إلا بعد أن تجاوزوا مدينة المنيا، فتم فتح الظرف وقراءة ما فيه والذي حدد ليوسف المدن التي يقف فيها ويشتري البلح من التجار الذين يتعامل معهم من تجار الصعيد ، وإنْ سأِل عن سبب التغيير الذي حدث في أسلوب نقل البضاعة التي كان يشتريها من قبل بواسطة المراكب النهرية والبغال والحمير والجمال ، فيكون الرد أنه يعمل الآن لصالح الجيش الأنجليزي في "القرنص" * ، وأنه أصبح مورداً معتمداً لديه وهناك اوراق ثبوتية بذلك ، وجدها بأسمه طي المظروف إياه ، وعليه شراء اجود الأنواع من التمر والبلح مهما كان السعر ، مع ترك ما كان يشتريه في السابق من بضاعة رثة، وقد أثار ذلك دهشة التجار الذين كان يتعامل معهم من قبل ولكنهم صدقوا روايتة بأنه يتعامل في القرنص مع الجيش الأنجليزى.

*القرنص: هم موردي كافة المواد الغدائية ولولازم الإعاشة بكل أشكالها ، وشراء الكُهنة والمخلفات من الجيش الإنجليزي ، وكان هناك العديد من التجار المصريين يقومون بهدا العمل ومشكوك في وطنيتهم.

وعلى أساس ذلك سارت الأمور لدى جميع التجار الذي أشـــترى منهم بضائعهم ، وفي أسوان نزل هو ومن معه بفندقها الشـــهير ، والذي يرتده عظماء القوم من كل بلاد العالم وأعيان القطر المصري ، وقد مكث فيها قرابة الثلاث ليالي في إنتظار شخصٍ ما سيحضر و سيلاقيه في بهو الفندق عصراً ، وسيقول له كلمات ، وسيرد عليه يوسف بكلمات ، ثم سيصحبه لفلوكة في النيل وسيسران معاً فيها وسيتم إخباره بما يجب عمله وإلى أين يتجه بالبضاعة التي معه مـــن تمر وبلح ، ولكن ما أثار قلق يوسف هوما حدث ليلـــة أمـــس في النادي الليلي للفندق أثناء جلوسه على البـــار يحتســـي مشـــروباته الروحية المفضلة مستمتعاً بتلك الفرقة الأجنبية التي كانت تـــؤدي راقصاتها الرقصات وهم شبه عرايا ، فقد إقترب منه رجلاً وأسرى إليه بعضاً من الكلمات التي متفق عليها وليست كلـــها ، فـــأثرت الريبة في نفسه أنها غير مكتملة كما أن الموعد المحدد هـــو العصـــر وليس آخر الليل ، فأثر يوسف السلامة وعدم الرد بل ترك البـــار والصالة كلها وعلى غير عادته عاد لإلى غرفته و لم يخبر بن كـــوهين بالواقعة ، وعندما إستيقظ في ظهيرة اليوم التالي وتنـــاول إفطـــاره كالعادة في تراس الغرفة التي تطل على النيل مع هفهفـــات النســـيم العليل المحمل برائحة وعبق الحضارة والتاريخ ، ساوره القلـــق ممـــا حدث ، فهل هناك تعديل في خط السير ، أم أن الصدفة هي الـــتي جعلت ذلك الرجل يقول مثل هذه الكلمات ، كما أن ملابســـه ليست كما جاء بالوصف، وما إن فرغ من تناول فطوره ، حـــتى

هبّ مستعداً لأرتداء ملابسه للنزول في بهو الفندق لتناول القهـــوة وإنتظار ذلك الرجل .

وما إن طلب القهوة واحتسى رشفاته منها على عجل حتى فـــوجئ بذلك الرجل الذي رأه بالأمس ولكنه يرتـــدي جلبـــاب أبـــيض وعمامة بيضاء تشبه عمامات أهل النوبة ، هو ذلك الوصف الـــذي كان مكتوباً في الرسالة التي فتحها بعد تجاوزه لمدينة المنيا ،أقتـــرب منه الرجل وأسر إليه بكل الكلمات المتفق عليها "النيل النـــهارده حلو وهواه عليل يرد الروح ، ما تيجي يابيه ف رحلـــة جميلـــة" ، ويرد عليه يوسف الرد الكامل المنتظر "بس الأجرة كـــام" ، فـــيرد الرجل "بلح وتمر" فيخرج الرجل ويتبعه يوسف حتى وصلا علـــى شط النيل وكانت هناك فلوكة صغيرة يركبها الرجـــل وكـــذلك يوسف ، وسأله يوسف عن سبب ما فعله ليلة أمس ، والذي سبب له الكثير من الحيرة والقلق ، فأفهمه الرجل أن هذا كان إختبار لـــه لمعرفة مدى تنفيذه للتعليمات من عدمه وقد نجـــح في الإختبـــار ، ولذلك جاءه اليوم، ورداً على سؤاله عن سبب التأخير لمدة ثلاثـــة أيام ، فأخبره أنها إحتياطات أمنية حتى يثبت لهم أنه غير مراقب من البوليس المصري وخاصة القلم السياسي النشط هذه الأيام ، وعندما تأكدوا من خلوه من المراقبة وإلتزامه بالتعليمات ســيّرت المهمـــة للإستكمال ، وها نحن معاً لتعرف القادم ، أعطى لـــه مظـــروف وطلب منه فتحه وقراءة الورقة التي بها الكلمات جيداً وحفظها عن ظهر قلب ثم تمزيقها قطعاً قطعاً ليست بصغيرة فقط بـــل متناهيـــة

الصغر بعد أن يحفظ ما فيها ، أم الورقة الثانية فقد كانت خريطة من ورق شفاف طري مطبقة على طريقة صنع البقلاوة ،عليه أن يحتفظ بها داخل جيب سترة أعطاه له ذلك الرجل وعليه أن يرتديها فوق القميص وبتلك السترة جيوب كثيرة علوية وسفلية ومن الداخل والخارج وبدون أكمام ، من قماش يشبه المشمع بعض الشئ ولونها ترابي مثل لون الصحراء، وأخبره أن تظل تلك الخريطة في جيبه العلوي على يساره ، وإن حدث ما يقلقه من كمين أوخلافة ، فعليه أن يلتقط تلك الخريطة من جيبه ويلوكها بفمه وكأنها قطعة لبان ، حتى لا يعرف أحد ما بها من أماكن ، كما أخبره بأن يحضر نفسه ومن معه للإنطلاق فجر اليوم القادم متجهين ناحية معبد أبي سنبل (الموقع القديم قبل نقله بمعرفة منظمة اليونسيكو ، وكان في موقع بحيرة ناصر حالياً على نفس المسافة تقريباً من أسوان ، ولكن جهة (الشرق) .

عاد يوسف للفندق آمراً من معه بالتجهز للسفر فجر اليوم القادم ولكن دون أن يحدد لهم المسار وقد أمرهم بتجهيز ماء ومشروبات ومأكل تكفي أسبوع سفر كامل، وتجهيز السيارة بالوقود والزيوت والكشف عن العجلات والكاوتش وكل ما يلزم، وفي أول الليل أنهى يوسف حسابات الفندق تماماً للمغادرة والتي أخبرهم أن في ظهيرة اليوم التالي ، ولكنه غادر بالفعل في جنح الظلام قبل الفجر ، بعد أن تسلل هو ومن معه دون أن يراه أحد بادئاً رحلته .

سارت السيارة على المسار المرسوم للرحلة لمدة يومين كاملين لم يتخللهما راحة إلا وقت الظهيرة والتي تشتد فيه الحـــرارة بدرجـــة كبيرة قد تصل إلى تجاوز الأربعين درجة مئوية ، وكان ينتقي أماكن قد يكون بها ظلاً لأطمة أو جبل يحميه من الشمس أو رؤية السيارة نفسها ، ويستمر في مكمنه حتالإنحصار فيستكمل رحلته ، مستعيناً ببوصلة وكيلومتر السيارة وما هو مدون بالخريطة التي معـــه ، وفي صباح اليوم الثالث لاحت له أول العلامات المرسومة في الخريطـــة بعد ما ساوره الشك من كثرة ما سار دون رؤية أي علامة ، فقـــد وجد شجرة مقلمة على شكل شمعدان داوود ، سار ناحيتها ومـــن ثم سار في أتجاه عمودي عليها تماماً وخلال ساعة وجد على الأرض مرسوم بالزلط النجمة الخماسية (نجمة داوود) أوقف السير بجوارها حتى أتاه من الجبل المجاور حماراً يحمل ماء في قرب علـــى جانبيـــه وزجاجة من الخمر المعتق وعندما قرأ تاريخ صنعها 2نوفمبر عـــام 1917 ، تبسم يوسف من التاريخ أنه تاريخ وعد بلفـــور المجيـــد بالنسبة له والمشؤم بالنسبة للعرب ، وما إن أفرغوا حمولة الحمـــار حتى عاد الحمار من حيث أتى ، وهناك تنبه يوسف وسار بالسيارة خلف الحمار بأقل من سرعة سيره المتهادي ، حتى وصل الحمـــار والسيارة لحضن الجبل ودخل أحد الكهوف والذي كـــان يســـمح مدخله بدخول السيارة أيضاً ، وكأن الكهف أبتلعهما ، ولم يتوقف يوسف بالسيارة رغم الظلام الدامس بالكهف والذي طرده نـــور السيارة واستمر في السير حتى وجد شخصاً أمامه ، يالها من مفاجأة

هذا الشخص هو نفسه الذي أخذ منه اللفافتين الممنوعاتين بالقرب من رفح .

وقفت السيارة بناءاً على إشارة ذلك الرجل ونزل منها يوسف والذين معه ، حيا ذلك الرجل الذي رد عليه "شـــلوم" حمـــدلله ع السلامة ، وأصطحبهم لمكان ترقوا له درجات من سلم حتى وصلوا للمر جبلي ترابي يشبه ممرات الهرم الأكبر يكادوا ينحنوا أثناء السير فيه عدا يوسف لم ينحني لقصر قامته ، وكان يسبقهم بالطبع ذلك الرجل ، وما إن وصل الجميع لمنطقة واسعة يغمرها ضوء يأتي مـــن مشعل معلق فيها كمشعل الأفلام الإيطالية ، حتى حـــرك الرجـــل حجراً غير مرأي للغريب عن المكان وذلك بدفعه للـــداخل فـــإذا بالحائط الحجري الذي أمامهم ينفتح للداخل أيضاً فيدخل الجميع منه ثم تعود الحائط إلى سيرتها الأولى ، مع كامل الدهشة ليوســـف ومن معه ، ودون أي كلمة تنطق منهم أومن مضيفهم ، حتى دخلوا ذلك المكان الوثير المضيئ بشمعدانات كبيرة على شكل شمعـــدان داوود النبي ، وما ذاد من دهشتهم أن الجو داخل المكان به نســـمة هواء رطبة غير ما كان بالخارج ، وساروا خلفه حتى وصلوا لبـــهو كبير بهً فرش يشبه فرش أهل النوبة من فروشـــات علـــى الأرض ومنضدة عامرة بفواكه كثيرة مختلفة الأنواع والألوان ، ووجدوا به باراً به ما لذ وطاب من مشروبات ومأكل ومكعبات مـــن الـــثلج أيضاً .

عرفه بنفسه ذلك الرجل الغامض وعرف يوسف أنه يدعى مناحم يهودي من أصل بولاندي عاش في المغرب فترة من الزمن وتعلم هناك اللغة العربية بكل اللهجات وأجاد اللهجة المصرية ، ويعمل ضابطاً في الجيش الأنجليزي ، ومكلف بمهام معينة منها نقل سلاح من السودان إلى فلسطين لتسليح اليهود بها ، وهذا السلاح أما عطية من الجيش الإنجليزي أو ما يسرقونه من مخازن السلاح أو ما يشترونه من (ضباط وجنود الجيش الأنجليزي نفسهم) وإن قلت بعض الشيء المنح الأنجليزية فيما يخص السلاح وكذلك الحراسة الشديدة على المخازن ، كادت أن تمنع السرقة منه ، ولم يبقى لهم سوى شرائه من الجنود والضباط ، وأن قلت مصادر تمويل عملية الشراء في الفترة الأخيرة ، ولكن القيادة وجدت سبيلاً لتدبير الأموال اللازمة لذلك وذلك عن طريق تهريب وبيع المخدرات ، وأورى إلى يوسف مسقطاً عليه خبرته في هذا المجال ، ولذلك أختاروه لتللك المهمة الوطنية المقدسة ، وقد عرضوه لإختبارات عديدة نجح فيها مما أصبح بعدها أهلاً لتحمل ذلك العمل الذي سيقوم هو بتنفيذ ما يخطط له من قبل متخصصين ولن يفشل أبداً طالما نفّذ كل ما يطلب منه على وجه الدق.

ذلك كان فحوى الحوار الذي دار همساً بين يوسف ومناحم ، وقد إنشغل الآخرين بالأكل والشرب عندما وجد الهمس بدأ من مناحم قاصداً يوسف به دون غيره ففهموا الرسالة فتركوهما منفردين .

طلب مناحم من يوسف أن يلوك الخريطة التي كانت معه ، فقد أدت الغرض منها وأصبح وجودها لافائدة منها ، وبالفعل نفذ يوسف الأمر فإذا بطعم الخريطة بالفعل وكأنها مرسومة علة رقاقة من لبان النعناع طيب النكهة ، لاكها يوسف وهو يضحك بصوت عالي وأكتف مناحم بالأبتسام ، وتناول الجميع وجبه شهية للغذاء في نفس البهو ، ثم دخل كل منهما إلى ممر به العديد من الغرف على اليسار وغرفة واحدة على اليمين داخلها مناحم الذي كان يتقدمهم وأشار لهم وظهره لهم بدخول الغرف الأخرى دون أن بنبس بكلمة ، دخل كل منهم غرفة وكانت مفروشة ومعدة للنوم ولا يعلمون سبباً للطف الجو بها أو بالبهو نفسه سوى وجود فتحتين متقابلتين غير متجاورتين ، وغط لك منهم في نوم عميق ، لم يقيق منه يوسف إلا عندما إيقظه مناحم وطلب من إيقاظ الباقين ، والتجمع بالبهو للنظر فيما سيتم لإستكمال الرحلة ، وقد كان ، أخبرهم مناحم بأن السيارة أصبحت معدة الآن للرحيل وتم التجهيز اللازم ، وعليه العودة للقاهرة فجر باكر ، وفي القاهرة هناك من سيقابلهم عند طريق الفيوم سيأخذ منهم السيارة ، وسينتظروه للعودة بها إليهم مرة أخرى ، ومن ثم عليه دخول القاهرة وبيع التمر والبلح الذي معهم وتوريد كمية منه في معسكرات الجيش الأنجليزي بالعباسية ، وهناك صف ضابط من الجيش الأنجليزي المسؤل عن التوريدات سيكون في إنتظارهم كل يوم من الساعة السادسة حتى السابعة صباحاً على أحد البوابات وكلمة السر

"مركب النيل وصلت من النوبة" ، سيأمر بإدخال السيارة وسنتظروا عودتها ، وستعود بدون أي حمولة سوى التلاليس الفارغة ، وتعود السيارة لمخازن صروف أفندي ، تلك كانت التعليمات وبدأت رحلة العودة وتم تنفيذ المطلوب على نحو الكامل من الدقة ، واستغرب الجميع من عدم رؤيتهم أي من البشر على الإطلاق سوى مناحم فقط ، ولكن ليس لهم أن يسألوا عن ذلك وهذا ما كان يقال لهم دوماً "لا سؤال" .

بالطبع كانت رحلة متعبة مرهقة محفوفة بالمخاطر ولكن كان داخلهم أحساس أن هناك من يرقبهم ولن يقعوا في ورطة وخاصة أن تواقيت المرور على النقط التفتيش المتواجدة على الطرق التي مروا بها محددة بدقة وكانت نظرات المفتشين الذين إلتقوا بهم تشي بأنهم يعرفوا ما يحملوه وكذلك طلبهم بسرعة الرحيل ، كان يوضح ذلك .

وكانت أول رحلة ليوسف في هذا العمل ، لم يعرف ماذا حمل وأين ذهب ما حمل ، سوى التمر والبلح فقط الذي باعه وأحتفظ بثمنه كاملاً لنفسه ، ولم يشاركه فيه إلا بن كوهين بناءاً على طلب كوهين ذلك من يوسف وأصر على ذلك فأستقطع منه جزء وأعطاه لابن كوهين على مضض ، ولكنه كان غنيمة وأكبر قيمة مالية يحوزها في حياته ، وبالطبع أرسل جزء منه لراشيل يغطي الكثير من مصاريف بنيامين ولمدة طويلة.

الفصل الثالث

زاد فسوق يوسف بزيادة وانتظام دخله ، وعدم إحساســه بــأي مسؤليات ، وكأنه يكافئ نفسه عن الأيام التي يسافر فيها في مهامه السوداء تلك ، والذي لايعلم ما يحمله ، ولكنه يدري خطورته من تلك الأهمية والرعاية التي يلقاها أثناء وبعد تلك الرحلات التي تمتد من جنوب القطر المصر لشماله ومن غربه لشرقه ، كما لاحــظ أن رحلات الشرق والتي يتوغل فيها حتى يتجــاوز حــدود غــزة في فلسطين تكون من السرية والأهمية القصوى ، حيث أن التلالــيس التي تحملها السيارة ليست كالتلاليس التي يحملها من الجنوب ، أي نعم يوجد بها تمور ولكن كان حجمها أكبر ووزنها أثقل بكــثير ، كما أن الكشافين الذين يسبقونه عددهم أكبروبتركيز شديد كمــا أن تلك الرحلات تستمر لفترات أطول لكثرة التوقف في الطريق في أماكن مخفية عن الأنظار وكثرة التمويه في المسار نفسه ، مما يجعلــه يشعر بحجم الأهمية في هذه الرحلات بالذات، ومع كل تلك المشقة التي يجنيها ، فأنه يحاول أن يعوض كل ذلك بزيادة المجون ، ولكــن آفته القاتلة هي النسوة ، وشرهه لهن ، وفي أي وقت وأي مكان ، ولذلك دبر مبلغاً من المال واستطاع شراء سيارة (كابورليــه) ذات سقف متحرك يخلع في الصيف ، ويثبت في الشتاء ، وكانت تلــك السيارة له الدار وغرفة السكن والمطبخ حيث جهز الشنطة الخلفيــة بكل التجهيزات اللازمة لذلك ووضع فيها فرش وتكايات وخمــور ومياه شرب وحاويات ثلج يضع فيها بصفة دورية وشبه يومية ثلج

مكعبات يشتريه من البار الذي يسهر فيه كل ليلة ، وهكذا سارت حياته من البيت للسيارة يصطاد بها النساء أي أنثى حتى ولو كانت بائعة يا نصيب إن لم يجد ما يروي نهمه كزير نساء ، وكان يتفنن في عمل خلطات تزيد من فحولته الجنسية عن طريق أحد العواجيز اليهود الذين يعملون لدى عطار مشهور في حي الحسين ، ثم البار ليلاً فيلتقي مع باقي الشرازمة من أنداده من اليهود وبالطبع كان من ضمنهم الثعلب الصغير إسحق ابن صروف ، بصفته ابن صاحب المحل الذي يدار كبار وشهرة البار مكتسبة من أن رواده ليسوا فقط من علية اليهود نساءاً ورجالاً ولكن من صفوة رجال الأعمال بكل جنسياتهم ومللهم ودياناتهم وتعقد فيه الكثير من الصفقات بأنواعها ، وما أحلى تلك الصفقات إن كان بها عناصر نسائية يستطعن بدلالهن إلانة الحديد في الكثير من الصفقات ، وبالطبع كن تلك النساء من اليهود دون غيرهن وكان بعضاً منهن من جنسيات أخرى مثل فنانات و راقصات الصفوف المتأخرة ، فقد كن كمبارس في كثير من الأحيان ولكنهن يجدن دوراً يلعبنه كي يتعايشوا منه أمام أي مقابل أو طلب يطلب منهن ، خارج دائرة البغاء التي كان مسموح بها في ذلك الوقت.

كان للبار هذا بعضاً من السمات أيضاً تمارس فيه ولكنه لم يسمح على الإطلاق بلعب القمار ، أو البغاء العلني فيه مهما كانت الأسباب ، ولكنه كان يسهل لكل ذلك بطريق غير مباشر ، بل

مقابل أجر عن طريق أحد النسوة التي تتخذ من البار مقراً دائماً لها وما تجلبه من بنات تختارهن كما يقولون (ع الفرازة) بل وحسب الطلب من ناحية السن والحجم والنوع ثيب أو أبكار طالما الزبون يدفع ، وكذلك كانت ترشد على أماكن (برتيتات القمار) والتي تكثر فيها الحسان .

كان هذا هو الظاهر من تلك الأعمال ، ولكن ما خفي منها كان أعظم ، فكانت الماسونية* تجد ضالتها، وتحقق بغيتها وأهدافها لصالح من يسعى إليها للإبتزاز بكل أنواعه سواء كان على المستوى العائلي أو المجتمعي وحتى السياسي ، لما كان لمترددين على هذا البار من مكانة وعلو شأن في كل تلك الفصائل ، متجاوزين فيه كل الفضائل للسقوط في براثن الرذائل.

وهنا كان الصيد ، وما أجمل الصائدين وما أحكم من شباكهم وكثيراً ما نجحوا في الإقتناص أمام غزارة العائد المادي الذي كان يعود على البار.

ولم تكن تلك الماسونية وحدها ما خفى ، بل كانت هناك المؤامرات على الوطن نفسه ، وخاصة أن أصحاب البار وإدارته من أشد المنادين بذلك الفكر الأعوج والذي يخرج كلية عن شرع الله ، ألا وهو الصهيونية.

فقد كان الخواجة صروف حبراً من أحبار هذا المذهب وداعياً له بكل ما أوتي والكن دون إعلان عن ما بداخله ويحتاط لإخفاء ذلك قدر المستطاع.

وفي ذات اليلة وداخل البار حدثت جلبة ، ناتجة عن مشاجرة بين الزبائن السكرى وتلك طبيعتهم ، ولكن ما يلفت النظر في تلك الجلبة أن أحد أطرافها ذلك الشاب الثري الوافد الجديد على البار ، والذي أفرط في كل تصرفاته ليس في إحتساء الخمر فقط بل في نقوطه يبذخ على تلك المغنية التي تقوم بالغناء لأدوار كبار المشاهير وأعلام الغناء وقت إذ ، أمثال منيرة المهدية وغيرها ،ولكنها كانت تؤدي الغناء بنوع من الإبتذال لتعوض أشياء أخرى ، ولما ذاد التنافس بين الرواد على النقوط ، تجاوز الأمر الحدود وتناحرت النفوس المغيبة بفعل الخمر ، فاشتبكوا بكلام وسرعان ما تطور الأمر للتشابك بالأيدي ، وكالعادة لا تتدخل إدارة البار في الموضوع إلا لو تطاول الأمر على حد معين ولايهم أي أعمال تكسير ، ففي النهاية سيتم تحصيل أضعاف تكاليف التكسير من طرفي الشجار قهراً منهم ولو لم يكن معهم مال ، فسيتم تحرير كمبيالات تحصل فيما بعد ، وكان ذلك يتم في وجود حراس غلاظ الطبع وذو بسطة في الجسم (بودي جاردات) متخصصين في هذا الأمر ، ولا يتخلوا إلا في حالة التهور الذي قد يسبب أو يزيد عن الجروح بين الطرفين . هنا يكون التدخل واجب.

وما حدث في هذا اليوم تخطى الأمـــر بعـــد أن ذادت حجـــة الشجار وألقى السيد أفندي العيسيلي بالكأس صـــوب رأس أحـــد منافسيه في النقوط على تلك المغنية (السكند هاند) ، فأصابه بجرح غائر فوق الحاجب وأنطلق الدم منه وكأنه نافورة ، وما إن وجـــد ذلك الرجل أن الدم يسيل منه فمد يده بين طيات ملابسه وأخرج مطواة قرن غزال وفتحها بحركة بهلوانية ، وأنطلق صوب الســـيد أفندي العيسيلي بغرض غمده في جسده أو إحداث به جرح علـــى الأقل ، وفي نفس اللحظة فوجئ الجميع بـــذلك الرجـــل الـــذي يصطحب السيد أفندي وكان لا يجلس معه على المنضـــدة ولكنـــه يكون ناحية باب البار ، وبمجرد أن رأى المطواة تفتح حتى ســـارع بإلتقاط زجاجة خمر من على إحـــدى المناضـــد وبســـرع الـــبرق كسرقاعها وأندفع فوق المناضد لضمان سرعة الوصول للشـــخص الذي يريد أن يهجم على السيد أفندي قبل أن يصل الرجل لبغيتـــه. كان وصل ذلك الفتى بجلبابه العادي الذي لا يتناسب رواد ذلـــك المكان يدل عن أنه خادم أو حارس لأحد الرواد ، وبالطبع الكـــل عرف لمن تكون هذه الحراسة ، وقبل أن يصل كلاً منهما منـــهما للأخر، كان قد وصل أليهما حراس البار الذين كانوا يتابعون أمـــر عن كثب وبترقب شديد ، وكان تتخلهما بالفعل سريع جداً ، وفي غفلة منهم مد الواد شيحة (الحارس الشخصي للسيد أفندي) يـــده التي بها رقبة الزجاجة لوجه الشخص الذي كان يريـــد أن يهـــاجم السيد أفندي ، محدثاً به جرح آخر في الجهة المقابلة للجرح الأول ،

مما ذاد من إندفاع الدماء من كامل ووجه بشكل يشبه التريـف ، ولكن أستطاعوا حراس البار من السيطة الكاملـة علـى الموقـف وأحكموا السيطرة على المتشاجرين ، وإن أتعبهم الواد شيحة كونه غير ثمل مثل الرجل الآخر ولكن الذي جعله يهدأ هو نداء السـيد أفندي له بلهجة أمره بأن يهدأ وكرر ذلك تباعاً حتى هدأ تماماً الواد شيحة ، تم إقتاد الجميع بما فيهم السيد أفندي لغرفة ناحيـة الإدارة وخارج الصالة ، وجاء من يسعف الجريح بمسح الدماء من علـى وجهه وحشو وكبس الجراح بالبن ، حتى يقف التريف تماماً وقـد حدث ، وقد زال عنهم بعضاً من أثر الخمر حتى بدا الجميع في حالة يقظة ولكنها غير كاملة ، وتدخل أحد من المسؤلين عن البـار في وجود حراس البار تحسباً لأي إشتباكات أخرى تحدث ولكن الأمر كان قد هدأ تماماً ، وأورى المسؤل عن البـار للطـرف المجـروح بضرورة عمل محضر بالبوليس لقيد الواقعة والتعدي والإصابة الـتي حدثت به متهماً فيها الأثنين السيد أفندي وحراسه ، كان الأمـر بالنسبة للسيد أفندي بينه وبين نفسه شئ يكاد أن يكون صـعب ، وليس صعب فحسب بل قاتل له ومميت ولعن الساعة التي دخـل فيها هذا البار ، فإن إفتضح أمره بدخوله مثل تلك المـواخير فـإن الدنيا ستقوم عليه ولن تقعد مرة أخرى ، وحتماً سيكون الأمر لـه فضيحة ليس لدى زوجته وأهلها فقط بل لدى والده أحمد أفنـدي العيسيلي كاتب المحكمة الشهير ، وليس لوم من هو في مقام حمـاه الضابط المتقاعد محمد الشحات ذلـك الرجـل الشـهير لـيس

.بالأسكندرية بل بكل أنحاء القطر المصري وخارج مصر كونه أنه أحد المشاركين في القبض على عصابة ريا وسكينة ، ولكن هناك لومين أشد من لومه أنه لوم زوجته نجية صاحبة الوكالة التي أصبحت حديث تجار بر مصر من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها ، واللوم الآخر وإن لن يحدث على شكل كلام بل سيترك إنطباع سئ عنه هو لوم الشيخة سالمة ، كل ذلك كان يدور في مخيلة السيد أفندي العيسيلي في تلك اللحظات ، وتمنى أن يخرج من تلك الأزمة بسلام دون خسائر معنوية ، فإن كانت على الخسائر المادية سيقدر عليها ولكن غيرها فلا.

ولذل قرر أن يتأسف للرجل المجروح محاولاً أن يسترضيه بأي شكل أو بأي مقابل ، وخاصة عندما وجه لهما مسؤل البار مسؤلية سداد مصاريف ما أتلفوه في البار وأثاثه وأدواته وكاساته وزجاجته التي تطايرت أثناء المشاجرة رغم أنها كانت كأس واحدة وزجاجة خمر واحدة و غير ممتلئة ولكنه كان يقولها عدة كنوع من أنواع التضخيم لتحقيق أكبر عائد ، وكان يعيد ويكرر ذلك بداعي أن المهم لديه سداد قيمة خسائر المكان ، ثم بعد ذلك يستدعي البوليس حتى يأخذ كل ذي حق حقه من الآخر، وعندما أحس السيد أفندي أن الرجل المجروح لايملك النقود لسداد تلك التلفيات ، عرض على أن يتحمل هو كل تكاليف الخسائر وأن يقوم بعلاج الرجل ولا داعي لإستدعاء البوليس ، وهنا أفصح الرجل الجريح أنه

يعرف أن السيد أفندي تمام المعرفة وأنه يملك القدر الكبير من المال حيث أنه باشكاتب وكالة الضابط ببولاق ، وأن ماله هـو الـذي جعله يفتري على باقي البشر ، وأنه لن يسكت وتمسك بضـرورة إبلاغ البوليس لهول ما حدث له في وجهه من جروح ستترك أثـر سيئ بوجهه وسيعاير بها بين أقرانه، وكان دائم النظر في المرآة التي أمامه محاولاً تحسس جراحه وكانت تلك الرؤيـة تزيـده تمسـكاً بالإستدعاء البوليس .

كانت تلك الكلمات هي مفتاح الفرج للسيد أفندي، فكانـت تلك المرآة التي ينظر فيها الرجل لجروحه ليست بمرآة ولكنها زجاج مصقول من ناحية الغرفة لاتسمح لرؤية ما وراءها ولكنها من الجهة الأخرى في غرفة الإدارة نفسها يرى من فيها من في تلك الغرفة ما يدور في الغرفة الملاصقة لها ، وكأنها مجعولة لأسباب أخرى (شـغل ماسونية).

في ذلك الوقت كان يجلس صروف أفنـدي بـالإدارة يرجـع حسابات البار ودار كل ذلك أمامه ، ولتعوده علي ما يحدث مـن كثرة حدوثه بين السكارى فكان الأمر لا يسترعى إنتباهه ، ويعلم تمام العلم أن هناك من يدير ذلك الأمور لما فيه خير للبار بأي شكل من أشكاله ، ولكن ما قاله الرجل عن كونية السيد أفنـدي وأنـه باشكاتب وكالة الضابط ، إسترعاه وكان لتلك الكلمات وقع عليه

كوقع الصاعقة ، فأن تلك الوكالة الحديثة تؤرق نومه ونوم اليهود كافة ،فقدأصبحت تلك الوكالة لهم ليس منافساً بل عدو لهم بشكل أثر على إستثمارهم الغير الحميدة ، فقبلها كان التجار يخزنون بضائعهم بمخازن ووكلات اليهود نظير سداد أرضية على ذلك التخزين ، ولكون أن هناك رقوداً بعض الشئ في تصريف تلك البضاعة وطول مدة التشوين كانت تزيد عليهم المبالغ المطلوبة ، فكان الحل في حالة عدم السداد هو زيادة الدين بالربا ويضاف إليها المدة التي يستمر التخزين فيها ، فإذا ما تم تصريف البضاعة ، تم السداد بما فيها الربا الذي تضاعف مما يزيد من ربحية اليهود دون عمل أو جهد ، أما في حالة تصريف البضاعة فإما يستقطع منها جزء نظير المستحق أو تباع بالسعر الذي يحدده اليهودي بنفسه وبالطبع يخبسه ويستقطع منه المستحق ثم يعطي الباقي إن بقى لصاحب البضاعة ، (سرقة علني) ، ولكن بعد ظهور هذه الوكالة تغير الأمر تماماً ، فلا ربا فيها ولا زيادة في سعر مقابل التخزين ، بل هناك من يتردد على الوكالة نفسها لشراء المخزن فيها بسعرها المحدد وكأنها سوق مفتوح لكل التجار يتم فيها ليس التخزين فحسب بل البيع والشراء أيضاً ، بالإضافة إلى الخدمات التي تؤدى في الوكالة للمتعثرين ، لذلك كله أصبحت الوكالة ليست منافساً بل عدو لليهود ، وكان الأمر بالطبع معروض على الرجل ثعلب اليهود لبحث الأمر بطريقة اليهود ، وهاهو الآن تحت يديه

باشكاتب الوكالة في ورطة ، وعليه أن يستغله ، فكيف سيتم ذلك ؟ وكيف يتعامل مع ما ساقه له القدر ؟

نادى صروف من خلف الباب على ذلك الرجل مسؤل البار المتواجد بين طرفي المشاجرة ، وطلب منه سرعة إنهاء المشكلة بأي شكل من الأشكال ، عدم التصعيد فيها كما هو متبع في مثل تلك الأمور ، ومن جهة أخرى أستدعى صروف أبنه إسحق طالباً سرعة حضوره للغرفة الإدارة حيث كان متواجد في البار هو ويوسف الشامي ، وكانا يتابعان الأحداث دون تدخل ، وبالفعل حضر أسحق ومعه يوسف لغرفة الإدارة ، وتلقوا أومرهما من إصروف بالتدخل لإنهاء الأمر بين المتشاجرين حيث أن أحد أطراف المشاجرة يهمه أمره جداً جداً مشدداً عليهما بذلك بل يجب الحفاظ على الود الكامل مع السيد أفندي حيث هو المعني بتلك الأهمية ، بل ذاد طلب منهما عمل كل ما يجب حتى يستمر تردده على البار بأي شكل .

فهم بالطبع إسحق ما يروم إليه أبوه ، وكعادته لا يسأل عن الأسباب فإنه سيعلمها وقتما يجب أن يعلمها ، ودخلا كلاً من إسحق ويوسف للغرفة المجاورة للإدارة ، وتحدثا كأنهما أحد شهود الواقعة ، ونسبوا الخطأ على الرجل الآخر وأخبروا مسؤل البار بما رأوه مأكدين تجاوز ذلك الرجل في حق السيد أفندي ، وأنه هو من

حاول ضربه وما فعله السيد أفندي كان على سبيل الدفاع عن نفسه ، وأنهما سيشهدا بذلك أمام البوليس إذا ما جاء بل أنهما أكدا أنه هو من أحدث كل التلفيات بالبار ، وهنا تدخل حراس البار لإدجباره على تفتيشه وإخراج ما في جيوبه من نقدية أو إي أوراق تكون معه أو أي شئ ثمين يمكن الإستيلاء عليه ويكون رهناً لدى إدارة البار حتى يفي بما يقدره المسؤل عن البار نظير التلف الذي حدث ، وهنا زمجر الرجل وأرغى وأذبد محاولاً إتمامهما بالشهادة الزور ونفي التهمة عنه وإظهار مدى ظلمهما له ، ولكن هيهات أن يسمعه أحد من المتواجدين ، وعندما أحس أن الأمر خرج من يديه سلم بما هو مطلوب منه ألا وهو الإنصراف دون المطالبة بأي حقوق ،ودون أن يتورط في شئ أخر من جراء تحميله مصاريف التلفيات التي حدثت وأتموه الشهود زوراً بها ، وهو لا يتحمل مثل تلك الغرامات ، وبذلك إنفض الأمر وأنصرف الرجل وشكر السيد أفندي الشاهدين الذين أنقذاه من تلك الورطة بعد أن عرّفاه بنفسيهما بأسمائه دون ألقابهما أو وضعهما ، وقاما هو بتعريف نفسه لهما وكنويته وعمله وأنه أحد الشركاء في وكالة الضابط الجديدة في بولاق ، هنا لمعت عينا إسحق وفهم سر اهتمام أبيه صروف بالأمر على هذا النحو ، ولما هم السيد أفندي في طلب تحديد المبلغ المقدر على التلفيات التي حدثت بصالة البار وأثاثه والزجاجات التي تكسرت ، كررا كل من يوسف وإسحق ما سبقه قوله في هذا الشأن من أنها مسؤلية الرجل الأخر لا مسؤلية السيد

أفندي ، ولا يجوز تحميله ما لم يفعله ، وفهم مسؤل البـار مغـزى غمزة العين الخلسة التي رمقها به إسحق له ، فلم يعقب، بـل زاد يوسف الشامي من التودد عندما أخبر مسؤل البار بأن مشـروبات السيد أفندي التي تناولها اليوم على حسابه ولا يحصلها من السـيد أفندي ، وذلك إكراماً لمكانته العالية وعلى شرف التعرف عليه اليوم ، وعندما حاول السيد أفندي رفض ذلك ، فشل معهما وأصرا عليه كعربون للصداقة بينهما والإنضمام لشلتهما حتى لا يكون بمفرده في البار بعد اليوم حتى يشكلا معاً عزوة في مثل تلـك المواقـف ولا يكون وحيداً رغم وجود حارسه الشخصي الواد شيحة ، وأخبراه أن من دواعي الشرف والسرور لهما ولشلتهما متعـددة الرجـال والنساء الجميلات أن ينضم إليهما ، وعندما همّ بالإنصراف أبيـا ذلك واصراعلى إستكمال السهرة وأخباره بأن هناك من الحسـان الذين سينضمون أليهما بعد قليل ولن تفوته هذه الليلة وستكون ليلة أنس وفرفشة تعوضه عما حدث له أول الليلة ، وبالفعل رضخ لهما وأستكمل السهرة وكانت كما قالا ، فقد أستدعي أسحق ويوسف بعض الحسان منهن من اليهود وغيرهن ممن يستعملوهن في رمـي شباك الماسونية على الفريسة ، إيذاناً ببدأ التخطـيط لهـدف لم يتحدد بعد ، وبدأت إيضاً رحلة لبطل قصتنا يوسـف الشـامي بالتعرف للسيد أفندي العيسيلي ، وتوطدت العلاقة بين ثلاثتـهما بصفة خاصة بل ذادت تلك الصداقة وقد عرفا كل ظروفه تحديـداً وتفصيلاً وأسرفا معه بل أغدقوا عليه في الصرف على كل ما هـو

منكر ، وكان يحكي لهما ما يحدث وما يدور في الوكالة ، كنـوع من الإفتخار بنفسه ولكنه كان يشي بأسرار العمل بكل مافيـه و لم يكن فيه سوى الخير مما كان يزيد نار مستمعي تلك التقرير اليومية إشتعالاً ، ويوغر صدرهم على الوكالة وأصحابها وإدارتها ، وخاصة عندما بدأت الوكالة نفسها في الدخول في مجال التجارة لا التخزين فقط ، وحب الموردين للبضائع من جهات القطـر المصـري مـن التعامل مع الضابط محمد أفندي الشحات الرجل المشهور ، لـيس لشهرته - كأحد المشاركين في القبض على عصابة ريا وسـكينة- فحسب ، بل لأمانته وحسن وصدق تعاملاته مع الكل ، وكـذلك سرعة نجدته للمتعثرين بفض ضيقتهم بـأي شـكل دون ربـا أو إستغلال .

هكذا سارت الأمور بين الثلاثة ، ما إن ينتهي السيد أفندي من عمله في الوكالة ويأتي عليه الليل حتى يتأهب لسهراته ويكون الواد شيحة منتظره وقد أعد له البنس (عربة حنطور يجرها حصان واحد تكفي لفرد أو فردين لها غطاء يركب عليها في فصل الشتاء عنـد المطر ، ويستعملها الأعيان ووجهاء القوم عند تنقلهما) ، وكانـت زوجة السيد أفندي العيسيلي وهي كما يعرفها الناس والسيد نفسه هي المعلمة نجية صاحبة الوكالة الحقيقة وهي قريبة لمحمـد أفنـدي الشحات وقد أنشأ محمد أفندي الضابط السابق بـالبوليس تلـك الوكالة من إيراث قريبته هذه والذي تزوجها السيد أفندي العيسيلي

أبن أحمد أفندي العيسيلي كاتب المحكمة وكان جاراً للضابط محمد قبل أن يتقاعد ويحال للمعاش في الأسكندرية التي مازال كامل أسرة العيسيلي بالأسكندرية ، ونذكر القراء الإعزاء بأن تلك الزوجة هي (بديعة بنت ريا وخالتها سكينة) والتي فضل الضابط محمد أفندي الشحات اللجوء للقاهرة بعد حادث حريق ملجأ الأيتام التي أودعت فيه بعد الحكم بالإعدام على أهلها وعصابتهم الشهيرة التي أرقت الأسكندرية والقطر المصري بأكمله (ولا يعلم أحداً ذلك البتة) .

كان يشعر السيد أفندي بالسعادة كل ليلة في صحبة هؤلاء اليهود وكان إنضمام بن كوهين الساعاتي المشهور بواقعة إثبات بخله بالنعي الذي نشره عند موت أبنه الأكبر ، كان مجال للضحك والفرفشة وخاصة عندما يتاول الجميع سيرة كوهين الساعاتي ، ولم يكن أبن كوهين يتضرر من تلك السيرة بل كان يشارك معهم فيما يقوم به والده من أفعال تصل لحد الطرائف والتي يمكن أن يتندر بها الجميع ،وكانت لا تخلو ليلة من تلك الطرائف ، ولم يكن هناك ما يؤرق مزاج السيد أفندي سوى أسئلة زوجته التي أحست بمدى سهراته التي أصبحت يومية وتغيبه في كل الأحيان إلى بعد منتصف الليل ، وفي بعض الأحيان لقرب صلاة الفجر ، كما لاحظت عدم إنتظامه في تأدية الصلاة بشكل مستدام ، وعدم صلاته الفجر رغم رجوعه قبل الصلاة وتفضيله النوم عن الصلاة ، كما أن ذلك

السهر أثر على تواجده في العمل وإن تواجد لا يكون بشكل نشط كما كان ، ولكنها حتى الآن لم تشتكي منه لأحد ، وكانت أيضاً تراجعه في الفواتير الكثيرة التي كانت ترد بأسمه مستحقة السداد ، كان بعضاً منهما من مطاعم شهيرة ومحلات ملابس وخلافه ، وذادت الفجوة بينهما عندما أكتشفت أمر معاقرته للخمر وقد أحست به عندما عاد إليها في أحد الليالي مترنح وقام بإيصاله الواد شيحة حتى باب الشقة التي يقطن فيها على غير عادته والتي سمعت صوهما عندما أحدث ضجة أثناء بحثه في جيوبه عن مفتاح الشقة ، ونظراً لإحساسها بوجود أحد غريب معه وكوها بملابس النوم الخفيفة لم تفتح له الباب وظلت مستمعة لما يحدث حتى فتح باب الشقة ودخل هو مترنحاً من فعل الخمر وسحبته من يديه حتى لايحدث جلبة توقظ النائمين من باقي أهل المترل لقرب وقت إستيقاظهم المعهود قبل آذن الفجر والذي قد قرب حينه ، وأدخلته الغرفة وساعدته في خلع ملابسه وتغييرها ليلقي بنفسه فوق السرير ، ورغم تعبها من الحمل في مولودها الثاني إلا أنها لم تتركه ينام إلا بالوضع السليم للنوم ، مؤثرة كعادهّا الكتومة عدم فضح أمره لحبها الشديد له من ناحية ومن ناحية أخرى أنه نوع من الطيش يجتاح الرجال في مرحلة من مرحل عمره سرعان ما يزول كتروة ويعود لصوابه وخاصة أنها تعرف أصله الطيب ، ولكنها فتحت معه الموضوع مؤكدةً له رفضها لفعله ما يغضب الله من شرب الخمر لأنها أم لكل الموبيقات ودرب كل المعصيات والكبائر ، بل هددته

يومها أنه ستشكو أمره لأهله (دون تحديد أمه أم أبيه) بل أكتفت بذكرهما ، كنوع من أنواع الردع لعمله المشين تلك ، وتمتم لها ببعض الكلمات التي لم تفهم منا شئ ولم تعقب هي على ما يقوله مكتفيةً بالإيصال لومها ورفضها لما يقوم به ومعلنة مقاطعته له كزوجة بشكل جدي حتى يعود لجادة الصواب ، وعليه أن يختار، وأختار هو طريقه الذي رسمه له الشياطين اليهود ، وهنا زادت الفجوة بينهما وجهزت له أحد غرف المندرة خارج الشقة ليقيم فيها بمفردة حتى لايدخل مخدعها وهو في حالة سكر تفرضها هي مخافة الله ولعله يرتدع فيعود ، ولكن وساس الشيطان يعلو على ما تفعله هي ، وهكذا زين له الشيطان فعله ، وكما علم من السواد شيحة المحاولة الفاشلة التي حاولتها مع شيحة لمعرفة أخباره ومكان سهرة وماذا يفعل ، ولكنها فشلت لولاء شيحة لمعلمه ولاءاً تاماً وكذلك إستغلاله لأبداء غباء يستدعيه عندما يلزم الأمؤر ويزيد من التهتة التي كانت به في طبيعة كلامه ، وكانت بدون إستعباط منه تجعل من يسمعه يمل فيسرع بنهو الحديث معه ، وكان يزيد فيها عندما تسأله عن أمر يخص السيد أفندي العيسيلي ، فتمل هي من ذلك وتتركه دون أن تعرف ما ترنو إليه منه .

زمن ناحية أخرى كان السيد العسيلي يعيش حايته كما يقول العامة (بالطول والعرض) ، وقد حضر ذلك الإحتفال الكبير الذي أقامه صروف أفندي عندما حصل على البكوية ، وكان أشبه

بالكرنفال الذي حضره علية القوم والأعيان من كل حدب ودرب وتعرف على الكثير منهم وخاصة من التجارالذين كانوا يترددون على الوكالة وعرّفوه على أخرين ومسؤلين في الدولة المصرية وقتها أحس بمدى الشرف الذي هو فيه جراء عمله وإنتسابه لوكالة الضابط ، وعرف أن له كيان وشأن يمكن أن يجعله في مصف علية القوم أنفسهم ، وذاد أمله في ذلك عندما لاحت له بارقة أنه يمكن أن يحصل على البكوية نفسها مثل صروف بك ، إن أدى بعض الخدمات الخيرية ورضت عنه الخاصة الملكية وعلى وعد أن يترشح لها لدى السرايا مدام أنه سيدفع المعلوم ، في هذا اليوم ذهب عنه سكره فقد سكر من الفكرة نفسها ، سيعلو شأنه وشأن آل العيسيلي نفسه وسيفخر به أبيه وأخواته البنات ويسارع بل وسيتصارع عليهم الخُطاب لنيل شرف نسب السيد بك العيسيلي ، جالت كل تلك الأفكارفي خاطره ، وأستعان بيوسف الشامي في هذا الأمر ونصّبه يومها إدارة الأمر بأي شكل وبأي مبالغ يتطلب دفعها ، وخاصة ما سيدفع في أعمال الخير التي لا تتوانى الوكالة وإدارتها وصاحبتها في المشاركة الفعالة بها وعسى أن تكون تلك المصارف صدقات تكفر عن سيئاته التي يقترفها من شرب الخمر .

هكذا عاد إلى البيت وحاول أن يدخل غرفة نومه مع زوجته وهو دون سكر ولكن كان صدها له بالمرصاد فآثر السلامة ودخل للنوم في غرفة الضيوف أو غرفة المسافرين كما كان يطلق عليها ،

ولكنه مضى في تنفيذ ماروده أمل وحلم ، وبالفعل لم يجد أي ممانعة في سداد المبالغ المتجهة أعمال الخير، بل كان ترحيب لها نظراً لوجود بند مالي دائم لها ضمن ريع الوكالة ، وعندما طلب المبلغ المطلوب لزوم الترشيح للبكوية ودار حوارا بينه وبين زوجته في هذا الأمر ، وكانت تتحدث معه للرد عليه بطريقة كما يقال (من تحت الضرس) لكنها لم تجيب بالنفي أو الإيجاب وقتها ، ولكنه بعدها تم تلبية طلبه ،وكان قد دار حوار داخلي بين زوجته ونفسها في هذا الشأن وانتهى على أن تقوم بتلبية طلبه عله يفوق لرشده ، ويعود لصوابه بعد رفعة الشأن التي ستجدّ عليه من البكوية ، كما أن ذلك شرف ليس للعيسيلية فقط ولكن إبنائها أيضاً ، ولرفعة شأن الوكالة أكثر وأكثر ، فأثرت الموافقة عن الرفض ، ولبت له ما طلبه ، بالفعل ما هي إلا شهور حتى جاء البشير بموافقة السرايا على منح السيد أفندي العيسيلي لقب البكوية ، وقدج نالها ،وبمساعدة ومساندة قوية من اليهود !!

. أمرهم غريب هؤلاء الناس ، يرفعون أعدائهم لعنان السماء ماذا يريدون من السيد بك ، وماذا يخططون ، وكيف يستعلونه لضرب الوكالة تلك هذه العدو الذي أرّق مضاجعهم وقلل مصادر دخلهم ، وأضاع عليهم السوق.

هذا ما سنعرفه.

بدأت مصادر الدخل لتمويل مشروع تهجير اليهـــود إلى أرض الميعاد لا تفي بالحاجة المطلوبة لأسباب عدة ، منها على سبيل المثال لاالحصروعي البوليس المصري بقلمه السياسي من إحباط محاولات عدة لتهريب السلاح ومصادرة ما يتم ضبطه ، وما فيه من أشـــياء آخرى مثل المخدرات أو أي بضاعة تضبط مع شحنات الســـلاح تلك ، ولكن لم يكن من تلك الضبطيات ما كان يقوم به يوســـف الشامي ربما لأن المخططين لتلك العمليات كانوا أشـــباه محتـــرفين بعض الشئ ، لديهم تقنية عالية في مجال المعلومات وتبادلها بطـــرق آمنة وسليمة لا يمكن إختراقها من البوليس معطلاً بشئ يمثل توقف شبه تام لمصر من مصادرالتمويل ؛ إلا وهو الربا وعائده المجـــزي ، وخاصة في مجال الربا الناتج من تعثر التجار ذوالصيت والغنى حـــين يعجزوا عن سداد ما عليهم من مبالغ وكثيراً مما تتراكم تلك الديون لآسباب في الغالب ما تكون غير معلومة لـــديهم ، فقـــد كـــانوا يتعرضون - وهم لايعلمون - لأمور تجعلهم قسراً منهم يتعثرون ، ومن تلك الأ مور كانت اللعب في أخلاقهـــم وجـــرّهم للرزيلـــة والسهر وتوريطهم في سهرات ينفقون عليها أكبر مما يكســـبون ، ومنها ما يتم لعبه عليهم في سوق المال والبورصة بضـــرب أســـعار السلع المتداولة عن عمد وتعمد مثل القطن والبصل والعدس والفول والقصب وغيره من السلع التي تتداول في البورصة الكبيرة أو بورص خاصة بتلك البضاعة وكانوا يعرضوا أسعارها لهبوط حاد أو إرتفاع عشوائي بشكل يؤثّر فيمن لايجده لتعرضه لخسارة أو تعمد سمسارة

سوق المال وكان الأغلبية من تلك الطائفة من اليهـود ، فيتعثـر التجار ويكاد أن يخسر جزءاً أو كل ما يملك ، فيلجـأ إلى اليهـود للرهن أو بيع ممتلكاته نظير ما نشأ عليه من إفلاس أو مديونيـة ـ فيخسر هو ويكسب اليهود وهم بالفعل أهل مال يجيدون لعبة المال على مر العصور حتى الآن .

قلّ ذلك المصدر بشكل مفاجئ ، بل كاد أن يتوقف كليةً ، ولما بحث اليهود عن سبب ذلك عرفوا مدى تأثير تلك الوكالـة الـتي إفتحت من ما يقرب من عامين فقط في منطقة بولاق هي السـبب الرئيسي ، بحثوا عن مالكها وإدارتها ، وقوة رأس المال الذي يديرها على هذا النحو ، فقد بدأت تلك الوكالة فقط بغـرض التخـزين لحساب الغير مقابل أجر ، سرعان ما تطور الأمر للدخول في مجال التجارة والتجارة النظيفة الصادقة ، ولكن مهما كان الأمـر فـإن التنامي المالي الذي يحدث في تلك المؤسسة المالية المحدودة لا يمكـن أن يكون بكل تلك القوة وخاصة بعد عامين من إنشـائها ، فـلا يمكن لمديرها محمد أفندي الشحات والذي يعرفون عنه كل شئ أن يكون بذلك الحجم المالي ، وذادت دهشتهم حينما عرفوا أنه ليس صاحب رأس المال ، ولكن رأس المال كانت لربيبته قريبته المـدعوة المعلمة نجية ، التي ما لبثت أن تزوجت منذ عامين من جـار لهـم بالأسكندرية غير مكتمل التعليم وكاد أن يحصل علـى الشـهادة الأبتدائية بشق الأنفس وتخلف عن زميله الأبن الأصغر لمحمد أفندي

الشحات والمدعو محروس والذي أصبح ضابطاً في الجيش المصري ، والذي ذاد من دهشتهم أكثر هو رفض محمد أفندي الشحات من التعامل مع الجيش الإنجليزي فيما يسمى "القرنص" و رفض حتى التعامل مع الجيش المصري نفسه رغم وجود أبنه فيه ربما لرفع الحرج عن ابنه ،وضمان عدم زج أسمه فيما يتم تداوله من معاملات تجارية ، ورغم كل ذلك كان رأس مال الوكالة يربو ويتزايد بشكل لا يعلمونه ، أو لايقدرونه أن هذا المال مان فيه ما يشبه الأسرار منها التعامل مع الله فيه بفعل الخير ونجدة المستجير وعدم المرابية فيه إكتفاءاً بالمرابحة التي أقرها الله وصدق تعامل القائمين والعاملين في الوكالة ، ومن كل ما عرفوه وما لايعرفوه كانت تلك الوكالة حجر عثرة لإهدافهم لابد من إزالته أو زحزحته على أقل تقدير ، فماذا هم فاعلين ، وخاصة أن إدارته ليسوا ممن يمكن إستقطابهم ، فذلك الرجل العجوز والذي تجاوز السبعين من عمره أويكاد وما له من تاريخ مشرف في البوليس ، وما قام به وهو على وشك الأحالة للمعاش من عمل نقله من صف الضباط لمصف الضباط تكريماً له على مشاركته في القبض على أكبر عصابة أرقت الأسكندرية العاصمة الصيفية والثانية للقطر المصري ألا وهي عصابة ريا وسكينة ، وهوالذي يواظب على الصلاة وزيارة أولياء الله الصالحين ، وهذا أبنه الشحات ذلك الرجل الورع التقي الذي لايقل عن أبيه ورعاً وتقوى ، هذه الفتاة صاحبة رأس المال ، ورغم ما بها من جمال وأنوثة ولكنها تخفي كل ذلك بتشبّهها بالرجل في الملبس والمسلك ،

حتى أن متعاملين معها ينادونها بالمعلم نجية لا المعلمة نجيـــة ، ومـــن
ينطق ذلك عن طريق الخطأ والنسيان لا يعلم ماذا يحدث له علـــى
أقل التقدير ستنظر له تلك النظرة التي تكاد أن تكون كسهم علـــى
وشك ثقب عينيه التي أرشدته عن أنوثتها فكان الكل يتجنب ذلك.
ولا يعيده ، فكيف لليهود الفرصة في إزاحة أو إزالة ذلك العـــائق ،
ولم يظهر لهم أملاً في ذلك إلا بعد المشاجرة الـــتي تمـــت في بـــار
صروف بشارع عماد الدين والذي عرفوا فيه ماهية السيد أفنـــدي
العيسيلي زوج المعلم أقصد المعلمة نجية صاحبة رأس المال في وكالة
الضابط وأحد المسؤلين أيضاً على الإدارة فيها ، ها هـــو زوجهـــا
وباشكاتب ومحاسب الوكالة تسوقه الأقدار لعش اليهـــود ، عـــش
الدبابير ، فقد أتاهم الفرج الذين يبحثون عنه ، من أجل ذلك بدأوا
في التخطيط الكامل وإن كان بطئ الوقع ولكنـــه ســـيكون كمـــا
يخططون وفي المواعيد المطلوبة ، حرصوا على السيد أفندي وعلـــى
وده وتلبية نزواته وكل طلباته بل ساعدوه ليحصل على البكويـــة ،
في نفس الوقت الذي كانوا يرسخوا فيه معاقرته للخمر والموبيقات
إلا أنهم فشلوا معه فيما يخص معاشرة النساء ، وحتى رغم ثمله ، وما
عرضوه عليه من جميلات منهن نجمات من نجـــوم الســـينما مـــن
اليهوديات إلا أنه أنف ذلك بشكل اثار دهشتهم وأرجع الأمـــر في
ذلك إلى حبه الشديد لزوجته التي تغنيه عن نساء العالمين وحرصـــه
الكامل على عدم خيانتها مهما كان الأمر ،وحتى بعدما إنكشـــف

أمر سكره والإنفصال الجسدي الذي حدث بينهما إلا أنه لم يرضخ أو يضعف في هذا الأمر .

طال صبرهم على السيد بك ، ولكن الأمر الآن أصبح لايحتمل التأخير عن تنفيذ مخططهم ، لابد من إنهاء أمر تلك الوكالة أمام الحاجة الملحة لإستعادة ذلك المصدر المالي المطلوب لتمويل المخطط الأعظم .

بعد أن تأكدوا أن السيد بك أصبح مدمناً للخمر والمخدرات وأنها تملكت منه كلياً فقط تم تنفيذ الشق الأول من مخططهم ، رفعوا عنه ما كان ينفقونه عليه لجلب أوسداد مستحقات تلك الموبيقات ، التي أصبح لازماً عليه أن يتناولها يومياً ، وكان دخله الشهري رغم كبره إلا أنه لايفي بكل ما يحتاجه أو يورطونه فيه ، وعند إرسال تلك الفواتير للوكالة مع تسريب وجه الصرف مقابل تلك المبالغ المطلوبة أنها نظير خمور وأشياء أخرى ، حتى يكون رفض السداد مضموناً وهو جزء من الخطة الموضوعة ، ولكن الصبر عليه إستمر ، ليس حباً فيه بل حباً وحرصاً على زيادة الدين ، وليؤجل السداد لأجل يحددونه هم يتماشى مع خطتهم ، ولكن سوء علاقة السيد بك بحرمه المعلمة نجية كانت تؤرقهم مع كل خبر يأتيهم بالتباعد الذي يحدث ، وتنبه لأمر ربما يدمر كل ما خططوا له . أمام قوة شكيمتها التي قد تصل إلى الإنفصال الكامل ، فيصبح

لهم صيدهم بلا جدوى ، فتنبهوا لهذا الأمر ، فبدأوا في عمل تغيير طفيف غي الخطة تتضمن المحاولة بل والمحاولة الجادة لتحسين العلاقة بين الزوج وزوجه عكس طبيعتهم الشيطانية ، ولكن لشيطنة أكبر ، ولتنفيذ ذلك حددوا سبب الخلاف الرئيسي بين السيد بك وزوجته المعلمة نجية وخاصة بعد وفاة سندها الرئيسي في الحياة وهو الضابط المتقاعد محمد أفندي الشحات ، فأصبحت الإدارة والمسؤلية كاملة لها وإن ذادت بعض إختصاصات السيد بك - فعرفوا أنها بالطبع ترفض على زوجها معاقرته للخمر والمخدرات فإستشاروا متخصصاً في ذلك والذي حدد لهم بعض العقاقير البديلة التي يمكن له أن يتناولها ، دون شرب خمر أو مخدر ، وإن كانت تفي بنفس الغرض ، وذلك كان مطلوباً حتى يقلل الفجوة في العلاقة ، كما أمروه أن يعود لصلاته وحرصه وعدم إرتياد البار والماخير التي كان يرتادها مع رفاق السوء ، ويعلن للجميع توبته وعودته لجادة الصواب ،حتى ينال رضا زوجته ، فينصلح الحال المادي معه ويقدر على سداد ما عليه من ديون ، بل رسموا له خطة أنهم سيساهمون معه في فتح مجالاً له للتجارة والتخزين لحسابه كي تكون له زمة مالية منفصلة عن زوجته بالإضافة لما يتلقيه نظير عمله كباشكاتب ومحاسب للوكالة ، هكذا أقنعوه وساعدوه بحزم في هذا الأمر ، وكانوا يرمون لذلك لأسباب تخدم مخططاتهم منها ، كما قلنا إصلاح وضعه مع زوجته فلا يحدث إنفصال ، كما أنهم يرمون إلا تخزين بضاعة لهم بكل ما فيها من مجرّم وغير مجرم في مكان آمن

للمدد قد تطول لعدم قدرتهم على توصيلها لأماكنها المرجوة نظراً للنشاط الملحوظ من البوليس السياسي المصري ، كما إن ذلك قد يكون كما سنعلم فيما بعد ربما هو السلاح الذي سيستخدم لتدمير تلك المنشأة بالكامل وهو هدفهم الأكبر ، وقد كان لهم ما رموا إليه أفادوا أنفسهم لحين ولكن الفائدة الأكبر كانت للحق .

عاد السيد بك فجأة إلى جادة الصواب دون ضغط من أحد ، فلم يخرج مثل عادته في الأوقات التي إعتاد على الخروج فيها ، مرت أكثر من ثلاث أيام متوالية لم يخرج فيها السيد بك من غرفته (غرفة المسافرين التي قطن فيها بعد خلافه مع زوجته) ، لاحظت ذلك نجية ليس من عدم تواجده في الوكالة فحسب ولكن لاحظت أنه لايقوم بتغيير ملابسه ولا يوجد بالغسيل أي ملابس له على وجه الإطلاق ، وبسؤالها عنه عن طريق خادمتها مرجانة علمت أن حتى الأكل لا يتناول منه إلا القليل فقط ، ولا طلبات له على الأطلاق ، وأن من يدخل عليه يراه أما يصلي أو شارد فلا يشعر بمن دخل أو خرج ، أما نائم يغط في نوم عميق ، هنا أحست زوجته وهي التي لاتزال تحبه ،فهو أول وآخر حب لها ، أحست بالقلق عليه ، فأسرعت في هذا اليوم الخطى للرجوع للمنزل بعد أن أدت ما عليها في الوكالة ، وصعدت درجات السلم على عجل ، وعلى غير العادة ولجت لداخل غرفة المسافرين التي لها باب من خارج الشقة منفصلاً عنها وبدورة مياه أخرى مستقلة ، وبعد أن طرقت عدة طرقات

متغيرة القوة بالتدريج ، ولما لم يأتها إذن بالدخول فتحت الباب ودخلت لتجد السيد بك ساجداً كما سجود الصلاة ، ولكنه ينتحب بكاءاً ، فجلست بجواره في صمت حتى فرغ من صلاته وكانت تجلس على يمينه وما إن سلم اليمنى واليسرى حتى أرتمى في حضنها كطفل وجد أمه وعلت بنرات نحيبه ، وقد زالت عنه رائحة الخمر التي كانت تكرهها فيه ، فضمته بشدة لصدرها ، ودون أن تنبس ببنت شفة جالسا مدة غير قصيرة على هذا الوضع حتى ألمتها ركبتيها من تلك الجلسة المعوجة ، فقام هو من جلسته على صدرها وساعدها على الوقوف ودون حديث سوى دموعه والتي كانت تمسحها له بثوبها وطرحتها التي تجعلها كعمامة من نفس نوع ولون قماش الثوب الذي ترتديه ، وكان ذلك زيها الرسمي في الوكالة ، حاولت نجية قيادته لخارج الغرفة محاولة إخراجه من غرفة المسافرين إلا أنه رفض ودار بينهما حوار كل منه ألم وندم على ما فعله وعن ما قصر فيه في الفترة السابقة وأنه عاد لصوابه ولن يعود أبداً لغيه القديم مهما كان الأمر ، وأنتهى الأمر من أنه لن يعود لمخدعه معها في شقته حتى ينتى ما في دمه من أثر للخمر والمخدرات فإن ذلك المخدع والعقار طاهر لا مكن تدنيسه بأي شكل من الإشكال ، وأفهمها أنه أقلع تماماً عن الخمر والمخدرات ، ولكنه لم يخبرها بأمر العقاقير البدبلة وكان بالطبع ينفذ ما خطط له اليهود حتى يفي بسداد الدين الذي ورط نفسه فيه وحرصاً على سمعته وسمعته عائلته

وسمعة الوكالة ، ولكن هناك أمراً لم يعلموه هؤلاء الفسدة كـــان داخل السيد بلك العيسيلي وهو أصله ومبتنه الطيب ،

فهل لذلك أثر ؟؟

أثر ذلك الجلي الذي لم ينتبه إليه يوسف والشراذم قادته أنهـــم بالفعل فقدوا السيد العسيلي للأبد، صنعوا منه المدمن وصنعوا منـــه التائب النائب العائد لحظيرة الرب، فماذا هم فاعلون ؟؟؟ هذا مـــا سنعرفه في الفصل القادم ...

الفصل الرابع

أزف وقت الانتقام ليس من السيد بك العيسيلي نفسه بل من الوكالة لمحو أثرها كله، نفس الغدر الذي سبق استعملوه مع يوسف الصديق " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم ".... صدق الله العظيم .

فقد كانت الوكالة هي يوسف الذي استأثر بالسوق وأرق مضاجعهم وجفف ينابيع النهب الذين كانوا ينهبونه من المصريين ، وأبداً لم ولن تكن مصر أبيهم ، بل كانت نهر مصالحهم الفياضة ، وإنصافاً للحق ليس كل اليهود كانوا كذلك ولكن كان منهم يعشقها لذاتها ولكن كما قال ربنا فيهم "إلا قليل" ، فخالقهم سبحانه وتعالى أكثر العالمين بهم وبسلوكهم ولذلك كانت أكثر آيات القرأن الكريم فيهم .

صدرت الأوامر لزبانية جهنم أن اطرحوا الوكالة أرضاً ، فقد خزّنوا فيها كل أنواع الممنوعات من مخدرات وأسلحة ، وخزنها السيد بك في القسم الخاص به ، ولكنه كالمتبع في الوكالة وهم لا يعلمون أن لكل قسم من الوكالة وحسب الشخص المخصص له يقوم بكتابة إقرار بنوعية تلك البضاعة وخلوها من أي ممنوعات وعلى أن يكون ذلك على مسؤلية الشخص المسؤل عن ذلك القسم ، وهذا إجراء سّنه محمد أفندي الشحات رحمه الله ، ولما أستقر الرأي لدى اليهود وظنوا أنهم فالحون ، وتنفيذاً للمخططهم الدنيئ ،

أتصل فاعل الشر ، بالشرطة مدّعي على غير الحقيقة أنه فاعل خـير ليبلغ الشرطة عن وجود ممنوعات بوكالة الضـابط ببـولاق ، وأن أصحابها يستغلون مناصبهم ومناصب أقارب لهم في التستر ، وقـد قام بتسمية هؤلاء أصحاب المناصب ، وبالفعل وبسرية كاملة ودون النشر عن المأمورية تم وداهمة الوكالة وكبسها ، وتم لهم ما راموا من ضبط كميات كبيرة من الأسلحة والمخدرات داخل أجولة الـبلح المخزنة بالوكالة

وصل إليهم خبر كبس الوكالة ، ونقل إليهم البشير الخبر ، دون تفاصيل بل إنشغل بالشكل السري والقوي الذي تم كبس الوكالـة به ، وحكى ما رأه بأم عينيه من تقطيع كامل لكل الأجولـة الـتي بالوكالة عن بكرة أبيهم ، وولوج السيد بلك العيسيلي وأهل بيتـه للوكالة بملابس النوم ، وأضاف من عنده دون الحقيقة خبر القبض عليهم جميعاً وتشميع الوكالة أيضاً وختمها بالشمع الأحمر ، هلـل اليهود عند سماعهم تلك الأخبار وأمعنوا في فرحتهم بـأن قـرروا الإحتفال بنجاحهم في هذا الأمر وأعطوا لإحتفالهم صبغة دينية وأن تناولوا الخمر فيها ، وهو المحرم عليهم في شريعتهم ولكنهم صهاينة يأخذون كما قال الرب فيهم ببعض الكتاب ويتركون الـبعض ، واستمرت فرحتهم واحتفالهم حتى الصباح وراحوا لنـوم عميـق بعدها تحدوهم الآمال عن زوال الوكالة ، ولكن أساءهم ما عرفوه آخر اليوم من أنه تم القبض على السيد بلك فقط دون غلق الوكالة

كما يرومون ، فقط بالغ البشير في نقل الخبر ، طلبوا من يوسف المرور ليستعلم عن خبر الوكالة ، وما يحدث بها الآن ، وجاءهم بالخبر اليقين الذي أحزنهم ، أن رهط كبير من التجار والحمالين والحمارين وأصحاب الوكالات الأخرى المجاورة يقومون بمساعدة المعلمة نجية والشحات بإعادة ملأ وترميم الأجولة وفرز البضاعة في كل قسم من الأقسام وإخراج التالف منه وجرده ومحاسبة المتضررين ، وإن كان أكثرهم يطالب بتأجيل المحاسبة لبعد زوال الغمة ، ومنهم من يزال على عهده بالتخزين في الوكالة ومنهم من رفع بضاعته وإن كانوا قليل ، وبضاعتهم كانت قليلة .

حدث ذلك دون المساس بالوكالة ودون غلقها مما أثار حفيظتهم ولكنهم علموا الأمر بعد أن أستوضحوه بمعرفة مصدر لهم بالشرطة والذي أخبرهم بالنظام المتبع بالوكالة ، والذي أفسد مخططهم الرئيسي، فلن يضيرهم شئ من القبض على السيد بك دون غلق الوكالة ، هكذا مكروا ومكر الله والله خير الماكرين ولكنهم لا يعلمون ، ومر الأمر وكأنه سحابة صيف على الوكالة دون أن يعلموا مدى الحرقة التي تسببوا فيها بفعلتهم تلك ، وتأثيرها على النفوس الطاهرة التي لم تستوعب سبب كل ذلك ، وأي منافسة تلك الغير الشريفة بين التجار ، هذا ما فكرت فيه المعلمة نجية "بديعة" ، لكنها لم تفقد الثقة في زوجها السيد بك ، فقد قبل الله توبته كاملة وغفر له ما جناه من ذنوب أيام غيه التي ولّت ،

. وهي كذلك غفرت له تجاوزه ، وأحست بالفعل بصدق توبتــه ، وعادت إليه بكامل الشوق والحب لحبيب غائب ، وهــاهي قــد حملت منه حملها الثالث بعد أن أيقنت صلاح توبته وعودته الحميده لحظيرة الله ، قد أيدها في ذلك الشيخة سالمة ، ولازالت كلماتهــا ترن في أذنها "خير الخاطئين التوابون" فلا يعرف حلاوة الإيمــان إلا من خرج وعاد إليه يعرف كم هو ضائع ، كما تذكرت كلمــات الشيخة سالمة ، عندما ناقشت أمر السيد بك معها بعــد إنصــلاح حاله ، بأنه سيتعرض إلى إبتلاء شديد ، حتى يتم تجهيزه من قبل الله بأمر جلل ، ولذلك سيحدث له أمر عسير ، ولكن دائما يأتي اليسر بعد العسر والله القائل " إن مع العسر يسرا ..." وكذلك تصــديقاً لقوله تعالى "أحسب الناس أن يقولوا أمنا......" .

كانت كل تلك العلامات والمقولات وأكثر من ذلك تدور بين بديعة ونفسها وبديعة والشيخة سالمة وهي بمثابة نفســها أيضــاً ، وهذا ما خفف على بديعة صدمة كبس الوكالة ،والقــبض علــى السيد بك زوجها ، فرغم جزعها الشديد ولكن إيمانها ببرأته كانت كعقيدة داخلها ، وآثرت الصبر وتجميع ذاتها بسرعة حتى تســتطيع التفكير فيما هو قادم ، وما القادم من الأحداث ، ما هو إلا جــزاءاً وفقاً لكل جرم إرتكبه يوسف الشامي ، ليس عن نفسه فقط بل بل لجزء غير قليل من قوم لم تكن تدفعهم إلا ريح غلّ وحقــد دفــين موروث ، يصل بهم إلا كل شر يقلق مضاجع الآمنيين من البشر لا

ذنوب لهم سوى أنهم ليسوا يهود ، فا تخذوا الميكفيلية مذهباً وطريقاً للوصول لمتغاهم دائم الظلم ، المهم الوصــول للأمــل المنشــود ، ولكنهم ينسون أن هناك رب لا يغفل ولا ينام ، يمهل ولا يهمــل ، يمكر كما يمكرون وهو خير الماكرين ، كما أن له جنــود يجنــدها عندما يحين الحساب ، حساب الدنيا غير حساب الآخرة .

ولأن بديعة لجأت إلى ربها ليدبر لها أمرها ، ولأن ربهــا أراد أن يرد كيد الماكرين ، أرشدها ربها إلى الوســيلة ، وهــداها طريــق الوصول للحقيقة ، فكان الإيقاع بيوسف الشامي هو جــزء مــن الجزاء الوفاق، أما باقي الجزاء الوفاق سيكون له هو شخصياً جزاءاً عادلاً ستنفذه بديعة بكلتا يديها دون إشراك أحد .

كان شيئاً طبيعياً أن يختفي كل من يوسف الشــامي وأعوانــه أسحاق ابن صروف وبنيامين أبن كوهين الساعاتي ، وألا يظهروا تحسباً أن يأتي باسمهما السيد بك العيسيلي في التحقيقات، مما قــد يعرضهم للقبض عليهم ، ولو لمجرد التحقيق معهم ، الأمر الــذي تم مناقشته مع مجلس الطائفة كي يقرروا الأمر ، فهم لا يتركون شيئاً للإرتجال والعشوائية ، وبعد مداولات ، تقرر أن يختفي ثالوث الشر عن الأنظار ، حتى تظهر بوادر التحقيقات الجارية ، ولهم بها عيون تمدهم بالأخبار أول بأول .

وبالفعل تم تكليفهم بالسفر في رحلة داخل مصر بعيد عن العيون بالقاهرة ، وعلى الحدود الشرقية لمتابعة ما يعدونه من عدة تجهيزاً لبطشهم الكبير ولتنفيذ وعد بلفور المشؤم ، وكانت تلك الفترة من أسود الفترات التي مرت على يوسف ، ففي الصحراء الجرداء قد يجد كل شئ إلا النساء ، وهو ما يعتبره الحرمان كل الحرمان ، ولكن الأمر لم يستمر كثيراً ، سرعان ما وصله البشير بالعودة على ضوء ما تم من تحقيقات رسمية لم ي رد فيها أي ذكر للثالوث اليهودي ، و لم يشي بهم السيد بك على الإطلاق ، و لم يبح بأنهم هم أصحاب البضاعة ، بل صمته الدائم وأصراره على أن البضاعة على مسؤليته ، تأكد التهمة عليه ، إلا أن طلب النيابة من تحريات في الأمر هو ما يؤخر عملية تحريك الدعوى الجنائية أمام المحكمة ، وهنا وجد مجلس الطائفة أن لإختفاء الثالوث اسحاق وبنيامين ويوسف الشامي ، وهم من أصحاب السيد بك المقربين سيكون علامة إستفهام ولا مبرر لاختفائهم إلا مسار سؤال قد تكون إجاباته ضد مصلحتهم ، فأمروهم بسرعة الرجوع للقاهرة ، فعادوا ، و لم يكن العود أحمد .

عادوا من سفر طويل وطرق وعرة وغير ممهدة ، آثر يوسف فيه عدم الراحة ، أو المبيت حتى لا يتأخر ويزيد داخله الحرمان الجنسي الذي يعاني منه بشكل مرضي ، فواصولوا السفر حتى بلغوا القاهرة في ساعات الفجر الأولى ، لم يلحق من اليوم إلا ساعة داخل فيها

البار الذي كاد أن يخلو من الزبائن وكذلك من النساء، مما زاد من لوعته ، فشرب حتى الثمالة ، من ضيقه حتى ينسى علتـــه وشـــبقه للنساء ، وقد أرسلوا إلى "هريدي الصعيدي" حارس العقار الـــذي يقطن فيه يوسف لينقله لسكنه ، أما رفعاً، أو جراً كما يحـــدث في بعض الأحايين ولا يسلم هريدي من الضرب والتلطيش الذي يكيل يوسف له حتى يعود ، ولكن الرجل كان من القوة والصبر عليه مما يمكنه في النهاية من السيطرة على يوسف حتى يلقيه على فراش نومه بشقته الموجود بجوار الخمارة بشارع عماد الدين والمملوكة إيضـــاُ للخواجة صروف مثل تلك الحانة .

من شدة التعب نام يوسف يوم أو بعض يوم ، لم يدري هو كم نام ، ولم يدري بالدنيا إلا وعلى رأسه وفي غرفة نومه إمرأة ، عبير عطرها الباريسي عندما تسلل لخياشيمه فعل فعل النوشادر للمغشي عليه ، كما أنه عندما عرفها من تكون تلك المرأة كاد أن يغشـــى عليه ، المعلمة نجية زوجة السيد بك العيسيلي في غرفة نومه ، المعلمة التي كان يسترق النظر إليها إختلاساً رغـــم تحـــذيرات اســـحاق صروف له ولو بالنظرات ، شئ لايمكن حدوثه ، شئ لم يخطر لـــه على بال ، ولم يراوده حتى طيفها في احلام أو أضـــغاث أحلامـــي الناتجة عن معاقرته الخمر، الأمر الذي جعله يأخذ وقتاً طويلاً ليفيق من ثباته وهول ما وجده أمامه .

أفاق يوسف أخيراً ، ودار الحوار كيفما دار ، يوسف يحكمه شهوته ، وبديعة يحكمها هدفها ، وكليهما يتبارزليصل مبتغاه من الآخر ،هو في عجلة من أمره ، وهي غير متعجلة في أمرها ، هو يريد أن يطأ وطره ، وأفصح عن ذلك صرحةً ، ووطرها هي لم تفصح عنه بعد ، تلاعبه على وتره ولا تشبع وطره ، بل تزيده شوقاً ولوعة لمبتغاة ، تعلن له عن رغبتها ، ولكن تتحفظ على أن ينال منها ، مر أول لقاء بينهما ، وإن لم يأتي بثمرة ولكنه كما يقول الساسة لقاء ذو "نتائج إيجابية" ، ستينع الثمرة ، ولا قاطف لها غيره ، وإلا ما كانت سعت له من البداية ، ولأول مرة في حياة يوسف لم يستعجل النتيجة ، بل فضّل الصبر ، لأنه سيصبر على قطف ثمرة عبرت آفاقه وأحلامه الجنسية كلها ، فآثر الصبر على أمل ، وزاد من إشيتياقه للمعلمة ما سمعه من هريدي الصعيدي عندما سأله عن التفاصيل التي حدثت أثناء نومه ، وعن الكيفية التي دخلت بها تلك المرأة لشقته وغرفة نومه ، وسمع من هريدي ، ما سمع مما أجج نيرانه بشكل كاد أن يعيده لأيام المراهقة ، ولم يسع في يومه هذا إلى أي إمرأة أخرى كعهده وكأنها شلّت تفكيره وعطلت آليات تعاملاته الجنسية التي جلب عليها ، تفكيراً وإنتظاراً للقاء مرتقب يطفأ نار شوقه الجنسي للمعلمة ، فصبر ، على أمل أن يكون الصبر جميل .

وكان اللقاء الثاني بين يوسف وبديعة أو المعلمة نجية كما يعرفها هو، ولا ننسى ما سبق وحدث له أثناء إنتظاره لهذا اللقاء ، وما

راوده في أحلامه المضغوثة بفعل تفكيره فيها وبفعل الخمــز الــذي يحتسيها لتنسيه الوقت حتى يتم اللقاء ، وكان اللقاء ، وياله من لقاء ، جسمها وشكلها وتعبيرها وعطرها وملابسها تقول له قولة زليخة "هئت لك" أم فعلها ، وقولها يراوغ ، ومن يراوغ اليهود وهم أهل المراوغة والخديعة ، تدعوه ليلبي وعندما يقترب تزوغ كما يــزوغ الثعلب ، فهل يزوغ ثعلبٌ من ثعلبٍ ، فلتفعل ما تشاء لن تخــرج من تلك الغرفة التي دخلتها للمرة الثانية إلا بعد أن أقضي حــاجتي منها أو تخرج جثة هامدة ، هكذا كان يقرر يوسف مــع نفســه ، وفهو لم يتعود على المماطلة في الجنس ، الكل يأتينه طوعاً وحــتى اللاتي يأتينه بعد أن قضى حاجته منهن يأبى أن يطئهن مرة أخــرى تنفيذاً لمبدأه أنه لايغتسل جسد في النهر مرتين ، سُنة سنها لنفسه ، ولا ينسى أبداً تلك الفتاة الريفية التي ساقتها له الأقدار ، أو ساقها قدرها المحتوم ليوسف ، عندما لإلتقاها بميدان الجيزة ذات ليلة وهي تبيع لوازم المذة لرغبي الشرب على باب الحانة التي كان هناك لــه موعد مع أحدى نجوم المجتمع ، ليس بمجتمع الفضيلة بل منمجتمــع الساقطات ، المتصيتات وقتها ، ولكنه بعد إنتظارها الطويل وقــد شرب حتى كاد أن يصل للثمالة ، ثم أتته تلك المــرأة لتعتــذر لــه بفظاظة عن عدم أمكانية قضاء الليلة معه ، فخرج خالي الوفاض ، وكيف تضيع عليه ليلته دون جنس ، فخرج يجر أذيال الفشل مترنحاً لا من سكره بل من ضيقه ، فوجد تلك الفتاة أمامه جالسة علــى الرصيف أمام سيارته ، وكانت تلك الفتاة بعفويتها لصــغر ســنها

الذي قد تبدو في الشكل أكبر من سنها لبروز ثدييثها الواضح نتيجة ضيق ثوبها وإتساع فتحة الصدر فيظره جيبها وخاصة عندما تميل لرص حبات الجمبري المملح وقطع المخلل لعرضها كبضاعة لراغبي شراء المذة ، لتظرها في أحسن صورة فيأتيه الرزق عساها أن تنتهي من تلك البضاعة التي ستفسد أن ظلت لليوم الثاني وخاصة الجمبري ، كما أنها بعفوية تحرّك رجليها ، بين المد والضم فيتحرك عنها الثوب فتكشف عن ساقيها وأعلى من ساقيها ، تتصرف كذلك وهي تعلم أن ليس هناك أحد يراها أو على أقل ينظر إليها ، لإنشغال الموجودين في الشارع كلٍ في سوقه من الباعة أو المارين أو حتى السكارى المغادرين أو القادمين ، ولا تعلم أن هناك من ينظر إليها ، بل يدقق النظر ، ويتابع حركاتها بإمعان بنظر خبير كامن في جلسته خلف مقود السيارة ، فقد كان ينعي حظه عن فشله الليلة في إغتنام ليلة حمراء مع أحدى نجوم مجتمع الغواني الشهيرات ، ولكنه فشل و لم يخرجه من خيبة أمله إلا عندما وجد الفتاة تلك أمامه ، وأمام عفوية حركاتها وعنفونية جسدها البض الناشئ ، ونظرته المتخصصة في معرفة باقي جسد النساء من مجرد ظهور بعض الملامح منه يمكنه أن يعرف باقي إمكانيات ذلك الجسد، و لم يخب ظنه أبداً في هذا الأمر فأصبح به شهيراً وخبيراً . لم يدم الصياد في مكمنه كثيراً بل أعطى لنفسه الأمر بالتحرك للإنقضاض على الفريسة ، وكن يجب أن يتروى فربما لتلك الفريسة من يحميها ، وكعادة أهل ذلك الكار من بائعي المذة لا يكونون فرادا بل

جماعات أقلهما أثنين ، فتمهل يوسف بعض الشئ ليتأكد من الأمر ، فساقت له الأحدث ما يؤكد أن الفريسة مفـــردة لا حــــامي ولا شريك لها معها ، وذلك عندما اختلفت مع أحد الزبائن على عــــدد حبات الجمبري للمليم الواحد وعندما رفضت الزيادة ضرب فرشها الصغير برجله فأطاح ببضاعتها على الأرض ، فراحت تلملم فيهــا وهي تسب الرجل وعينيها تدمع وتسب آخر لأنها تركها وحيــدة عندما أنهى بضاعته وجبر سوقه ، فآثر أن يرحل ، ولم تستطع هـــي الرحيل إلا بعض أن تبيع على الأقل الجمبري ، هنا تدخل يوســـف ليلقي شباكه عليها ، فخرجاً مسرعاً من سيارته ، ماداً يد المساعدة بلم ما تعثر منها وجارها في شتم الرجل الذي ذهب ولم يسمعه أو يسمعها ، حتى أعادة الفرش لما كان عليه وأن بقى عليه أثر تـــراب الشارع ، وهي تبكي بأنين على حالها ، وما ستلاقيه مالم يتم بيــع تلك البضاعة ، هنا تدخل يوسف بكل قوته لأصطياد الفريســـة ، عندما سألها عن تم كل تلك البضاعة ، فأجابته بالثمن ، فـــأخرج المبلغ من جيبه وطلب منها أن تقوم بتعبئه كل نوع في قرطاســـه ، ووضع الكل في قرطاس واحد كبير ، وبين دهشتها وبين محاولاتهـــا لتنظيف التراب الذي لا يزال على البضاعة الـــتي طالــــت الأرض، نهرها يوسف وقد دس المبلغ الذي كان لايزال في يـــده دســـه في صدرها التي تظهر منه صدرية من النوع البلدى ولكنـــها ضـــيقه ، مستغلاً إنشغالها فيما هي تفعله ، وكان يتلمس ما أصطدمت بــــه بيده ، ليأكد نفسه صدق حدسه وتخمينه لجـــودة البضـــاعة الــــتي

سيسلبها ، و لم تتنبه الفتاة لفعله ، ولكنها لتقط المبلغ قبل أن يسقط على الأرض ليظهر أمام عينيه مباشرةً وليس من بعد شراسة نهديها حديثي النمو ، كثمرتين لم يمسسهما إنس من قبل ولا جان.

طلب منها يوسف أن تضع بضاعتها في الكرسي الخلفي للسيارة ، وركب هو أمام المقود ، وكانت الفتاة بين الفرح بالفرج الـــذي أتاها بعد يوم عصيب شاق ، فأتاه الجبر دفعةً واحدة لبضاعتها التي كانت مهمومة بها فإن باتت بارت ، ولكن الله كريم أولى بالحمد ، وانصرفت الفتاة بعد الدعوات لليوسف بالسترعلى عملـــه الشـــهم معها وتركها يوسف تمشي أمامه ، وعينيـــه لا تتركاهـــا ، حـــتى انعطفت للشارع الموصل للشارع الرئيسي المطل على ميدان الجيزة ، فانطلق بمهل بالسيارة في أعقابها

كي يتأكد أنه منفردة لا أحد معها ، وحتى لا يراه أحد إن ركبت معه السيارة ، أما في الميدان فالكل مشغول ولا يتم تدقيق النظر لمـــا يجري بين الناس ، وبالفعل خرجت الفتاة للميدان المزدحم ، وسار حتى جاور الرصيف التي كانت تسير عليه ، وسألها ، عن الجهة التي تنوي التوجه إليها عساه أن يقلها إلى هناك أو أقرب مكان له لـــو على مسارطريقه ، وسط تمنع الفتاة وأصراره ، أخبرته أن متجهة لمشارف نزلة السمان على الشارع الكبير الموصل للـــهرم ، فجـــاء تأكيده أنه مساره الطبيعي وأصر عليها الركوب معه لخوفه الشديد

عليها في هذا الوقت المتأخر من الليل ، فرضخت الفتاة وركبت السيارة ، وانطلق هو وقد وصل لأول شارع الهرم بالفعل ، وتأكد أنه لايوجد من لاحظ ركوب الفتاة معه ، سار بسرعة لمدة غير قصيرة ، ولكنه وقف فجأة ونزل من السيارة بحجة أنه عطش ، وسأتي بمشروب من شنطة السيارة ، وفي لحظات أخرج من السيارة زجاجاتين بها مياه غازية ، وفتحها ، وسكب منها على الأرض القليل وملأ ما أفرغه منهما من زجاجة ويسكي ، لتعود عبوة الزجاجتين كما هما تماماً وأعاد عليهما غطائهما المفتوح وكأنهما حديثي الفتح وأغلق بسرعة شنطة السيارة ، ودخلها وناول للفتاة أحد الزجاجات ، فإندهشت الفتاة ، ووسط تمنعها للشرب ورغبتها المأكدة لتناول ذلك المشروب الغازي الشهير والتي لم تتناوله من قبل كونه كماليات لايقدر عليها سوى الأغنياء ، وأمام أصراره تناولتها الفتاة وقاد يوسف السيارة دون إسراع ، وكانت عينه عليها ليتأكد أن الالفتاة والتي كانت لازالت ممسكة بالزجاجة دون الشرب كنوع من الإستيحاء ، أو الاستكثار على نفسها أن تشربها ، أو على الأقل أن تشربها لوحدها ، وراحت تضغط على غطاء الزجاجة لإعادة إحكام غلقها ، فمنعها هو ولما أخبرته أن ستشرب عند عودها للمترل مع أهلها لعدم شربهم لها من قبل على الإطلاق ، وأمام مراوغتها له ، أخبرها بأن شنطة السيارة بها زجاجات كثيرة ، وأغراها إن هي شربت الزجاجة بأكملها سيعطيها عدداً من الزجاجات قدر عدد أهلها وهي معهم أيضاً ، لم يستمر الحوار

كثيراً حتى شربت الفتاة الزجاجة ، وإن كلانت أول رشفة منــها سببت لها إهتياج في زوراها وأنفها جعلها تسعل بشــدة ، وســط ضحكات يوسف الذي أمرها بالشرب على مهل وتعليقاتهــا أنهــا سمعت ممن شرب تلك المياه الغازية أن تدغدغ الزور والأنــف و لم تصدقهم حتى شربت هي منها فعلمت حقيقة تلك المياه الغازيــة ، وبعدها بدأت في إرتشاف الزجاجة على مهل حتى أتت على بكرة أبي الزجاجة متلذذة بطعما ولا تدري أنها مخلوطة بالويسكي هي لا تعرف طعمهما من قبل ، ولكنها أحست بدوار خفيف في رأســها سرعان ما جعلها تروح في خدر ، لن تعود منها كما كانــت ، أو ربما لن تعود مطلقاً .

في تلك اللحظات كان يوسف ينظرْ لفريسته التي لقمها طُعمــه الدنيئ وأصبحت أمامه جاهزة لانقضاضه عليها ليلتهمها ، ويلتــهم جسدها البض البرئ ، وهي في حالة أقرب للغيبوبة منها من اليقظة تتأوه وتتلوى كثعبان لا يبدو منه أثر سوى الحركة فقط ، وكانت السيارة قد عبرت المدخل المؤدي لترلة السمان بل عبر بهــا لقــرب مشارف طلعة الهرم ، وعلى يمينه الفنق الكبير مينا هوس ، وأســتمر في الصعود على هضبة الهرم ، حتى جاوز الهرم الأكبرمتجهاً للناحية الغربية منه ، وعندما تأكد من خلوه التمام من الأعين ، وأين الأعين وقد قرب الوقت على منتصف الليل أو يزيد ، وبرصانة المــتكمن وقف بالسيارة وخلف أحد الأحجار الكبيرة الساقطة من الهــرم ،

أعد مسرحه كأنها المخرج والبطل وكذلك المنتج ، وأعد الفــراش الذي دائماً يكون في السيارة معه نظراً لسفرياته الكثيرة ، ثم أنــزل الفتاة المترنحة من السكرى التي جعلتها تتحــرك مســلوبة الإرادة ولكنها تتحرك بعم إتزان معه وبين يده حتى لا تسقط على الأرض ، حتى وصلت للفراش ، فسقطت عليه وراحت تتمرمغ فيه بــدون وعي وكأنها في فراش نومها ، وهذا وما راق له، فراح يخلع عنــها ثيابها ويتحسس ما كان يراها ، ها هو بين يديه ، دون أي مقاومة تذكر بل وتلذذ منها وتجاوب لما يفعله بها ، فهي لا إرادة لها وغــي غيبة العقل التي أوصلتها لها الخمر الذي خلطه لها بزجاجــة الميــاه الغازية ، وما أن ينتهي ، فيعود بعد وقت غير قليل لإعادة الكرة ، مرة بعد مرة ، حتى بدأت الفتاة في اليقظة الغير المكتملة من سكرتها ، ووجدت نفسها على هذه الحالة العارية ، وهو يمتطيها كفــرس ، غرس الفارس فيه" سنبكه "بالكامل ، فإذا بها تصرخ صرخة شقت عنان ليس الصمت فقط بل شقت عنان السماء ، وألقته بجســده الضئيل من فوقها ، وراحت تهذي بكلمات لم يفهمــا وإن كــان يسمعها ، وكلما مر الوقت زاد صــياحها المصــحوب بالبكــاء وهياجها الذي بدا عنيف مع أنها لم تتخلص تماما من تأثير الخمر ، وراحت تضربه بشدة أوجعتا لاطماتها له وركلاتها ، الأمر الــذي جعلها يحول السيطرة عليها بكل ما يملك من قوة ، وأما عصبيتها لم يجد بد من طرحها أرضاً والتعليق في رقبتها بكامل قوتــه ضــاغطاً على حنجرتها لتكف عن الصرخ الذي قد يسمع غفر الأهــرام وإن

يقل تواجدهم في تلك الساعات كون أنه لا يرتاد تلك المنطقة أحداً ليلاً خوفاً من الذئاب وحيوان ابن أوى الذي يأتي من الصحراء لأكل فضلات زوار المنطقة بالنهار، ، ولكنها كانت مستمرة في صياحها وهياجها ، وزاد وعيدها له بأنها ستخبر أهلها وهم من جنوب الصعيد وسترشدهم عنه وسيقتلوه حتماً ولن يتركوا فعلته تمر دون عقاب ،مما زاد ن من عصبيته كلما أعادت على مسمعه العقاب الذي سيلاقيه على ما فعله بها ، ولم يكن أمامه من حل إلا زيادة الضغط على رقبتها حتى سكنت ، بل سكنت تماماً ، وسكنت للأبد ، عاد الصمت بعد الجلبة التي سببتها تلك الفتاة ولكن كان للصمت تلك المرة صوت داخل يوسف ، هل ماتت الفتاة ، أخذ يحركها يميناً ويساراً عليها تستجيب ، قتلها بدم بارد ، لم يهتز لقتله لها ، ما هي إلا أمية نجسة ليست يهودية مثله ، لا تقتل أحد الوصايا العشر المنزلة على موسى لا تنطبق إلا على اليهود أما الأميين من سائر البشر كانوا مسلمين أو مسيحيين أو وثنيين فهم أنجاس مناكيد لاحساب له عند "ألياهو" ربه رب اليهود ولا ضرر من قتلها ، ولكن الضرر الذي قد يصيبه لو اكتشف الأمر، فالأجدر به أن يفكر ويتحرك لتنفيذ ما سيفكر فيه لمحو جريمته وآثارها ، محواً لا تظهر له أي معالم ، فإن أختفت المعالم فلا جثث ، وكما أرسل الله الغراب لابن آدم قاتل أخيه ، سمع يوسف عواء الذئاب واب أوى ، فكان الحل ، بسرعة ألقى يوسف جثة الفتاة على الكرسي الخلفي للسيارة ولملم ملابسها التي خلعها عنها ولملم الفراش

النجس الذي كان يمارس عليه رزيلته ، وبدلاً من أن ينتظر قــدوم الضواري الجارحة من ديابة وابناء آوى ذهب هو إليهم بوجبة دسمة وهي جثة الفتاة ، وترك تلك المنطقة المجاورة للهرم وخلــف الهــرم الأكبر تلك المنطقة التي سيكون له فيها يوماً من الأيام وضع خاص ، ربما قد يختلف فيه حاله هو شخصياً وربما سيكون فيــه الجــزاء المتوافق مع فعلته تلك ، دخل يوسف وتوغل في عمق الصحراء في إتجاه الحيوانات المفترسة، بسرعة ، وكأنهم يستعجلون طاهي أعــد وجبة أو وليمة ، حتى ولج لعمق كافٍ يصعب للناس أتــراب منــه وقف بسيارته ، وألقى بملابس الفتاة على الأرض ، وبسرعة فــتح باب السيارة ، وأخرج منها زجاجة من زجاجــات الخمــر وراح ينثر على الملابس كامل محتويات الزجاجة ، وأشــعل ســيجارة ، بعود ثقاب تعب في إشعاله من الريح والهواء رغم عــدم شــدته ،ولكن لرعشة كانت تنتابه في مثل تلك المواقف وكذلك خوفه من هجوم أحد الضواري عليه ، ولكنه نجح في إشعال السيجارة وأخذ منه عدة أنفاس متتالية ومتلاحقة حتى كاد دخــان الســيجارة أن يخرج لهباً ، وبعد ذلك ألقى السيجارة على الملابس وأشتعل الكحل الموجود بالخمر فأشتعلت النيران ، وكان صوت عواء الديابة ومــا من فصيلتهم ، ينذر بقربهم منه ، ولولا تلك النيرن لهجموا عليــه ، ولكن النار أخرت ذلك ، وسرعان ما أخرج جسد الفتاة العــاري تماما ، وألقاه بجوار السيارة على مسافة من النيران ، الــتي كانــت مشتعلة ، وركب هو السيارة وبسرعة جنونية ، وصــياح هــدير

موتور السيارة يكاد أن يأنّ من تحته ، والغبار الذي ينتشـــر مـــن حركة الأطارت السيارة يسبب أيضاً زحماً قد تحسـبه الحيوانـــات الضارية أن هناك وحش سيلتهمهم هم لا سيلتهمونه ، مما أســكت عواءهم بعض الشئ و لم يعد يوسف يسمع لهم نقراً أ نفيراً ، حـــتى خرج من غياهب الصحراء ، ودخل لتبة الهرم الأكبر ليرحـــل مـــن تلك المنطقة ، وكأنه لم يفعل بها شئ علـــى الإطـــلاق ، وعنـــدما وسوست له نفسه ، عما سيفعله أو يظنه أهل الفتاة لغيبتـــها مـــاذا سيظنون ، فليظنوا ما يظنوا سيقولون ربما هجت ، أو سرقتها أحد عصابات المنتشرة حالياً والمشهورة بخطف النساء ، والتي أصـــبحت ظاهرة ، وإن كانت بالأسكندرية ، وها هي تلك العصابة قد نقلت نشاطها الرسمي بالقاهرة أيضاً وهنا علت ضحكته بصوت مسموع وعالي كثر حجاب صمته الذي كان عليه ، وأنتهى الأمر بوصـــوله لبيته وقد أوشك الفجر عن الإعلان عن نفسه.

مر شريط تلك الأحداث في ذاكرة يوسف في لحظات ، عندما أتته فكرة النيل من المعلمة نجية بأي شكل وهي الموجـــودة أمامـــه وكما قلنا في غرفة نومه الآن ، وها هي تتدلل عليه ، تركها المـــرة السابقة كونه كان متعب من السفر والنوم الذي كان فيه ، أما الآن فالوضع مختلف ، فقد جهز نفسه لتلك المعركة والتى توقع أنها لـــن تكون سهلة المنال أو لينة الطرقة ولكنه تحّضر لها ، كما أنها ربمـــا ، ربما تكون تبغي من وراء ذلك أمراً ما يخص زوجها وما حدث له ،

ربما قد تكون تسعى لأي معلومات بشأن ذلك الأمر ، فلا ضير من ذلك سوف أجاريها حتى أنل مبتغاي منها بأي شكل ، وهاهي قدت بدأت بالفعل تفصح عن ما أود أن أعرفه ، يالها من ساذجة تلك المرأة ، تطلب مني ماذا ؟ /اذا تقول تلك المرأة ؟ هي قد يكون عندها بعض المعلومات ، ولكنها غير مكتملة ، تريد أن تعرف مني ، تحاول أن تساومني بما لديها من إمكانيات ، وتنقر في دائي نحو النساء ، نعم أنا ضعيف أمام النساء إذا ما رغبتهن ، وأنا الآن حقيقي أضعف ما يمكن أمامها لم فيها من انوثة طاغية ، ولكن هيهات أن اضعف ، ساستمع لكل ما تقوله بل سأعدها أن أفعل ما تطلبه ، ولكن لابد أن تدفع الثمن ، والثمن ن بنياميناالذي سأحدده ، تلك المرأة بلهاء لا تعرف اليهود ، ولا تعرف الأثمان التي يقبضونها نظير تنفيذ ما يطلب منهم ، ولا تعرف أنهم بعد أن يقبضون المقابل يراوغون كما يراوغ الثعالب ، فالثابت عنا أنه لاعهد لنا ، أكملي ، هات ما عندك ، نعم، نعم ، سأساعدك على القبض عن صاحب البضاعة الأصلي الذي شوذن بضاعته المحرّمة بالوكالة ، والتي تم القبض على زوجك بسببها ، سأساعد ، سأفعل ، ولكن الآن فلنفعل شئ آخر ، اليوم أمر وغداً خمر ، كما قال العربي الذي علم إثناء إحتفاله بمقتل أخيه غدراً وغيله ، لم يشأ أن يلغي الحفل الذي أقامه ولديه ضيوف من حدب ، لم يريد أن يفسد ليلته ، ولنفعل فعله ، تعالي اليوم نلهو ونتمتع وغداً نبحث ذلك الأمر ، أنها إمرأة عنيدة حقاً لا تريد أن تسمع لي ، لا تريد أن تسلم

لي نفسها هي الخاسرة ، لو صمت قليلاً ، لو تترك لي نفسه لبرهة ، سأنسيها السيد بك ، لا ستنسى الدنيا كلها ، لـــن تفكـــر في أن تخرجه من محبسه أبداً ، فقط تتركني قليلاً ، إنها لا تسمح لي حـــتى بمداعبة يدي لها ، تمنعني من لمس جسدها ، يدها قوية ، ســـريعة رد الفعل ، أناورها كي أمسك أجزاء من جسدها ، يدها تلبي تلـــك المناورات فتمنعني ، أه لقد أتعبتني من كثرة التحرك والمنع ، وهي لم تكل أو تتعب ، لم تتوقف عن الكلام ، ولا يشغلها عن الحـــديث مناوراتي ومداعباتي لها ،وكأني لا أفعل شئ ، ماذا تريد تلك المـــرأة ؟، ماذا تقول؟ ماذا تقول يا الهول ؟ ، إنها .. إنها تتحدث عـــن... عن راشيل أختي وبنيامين ابنها ، لا ..لا ، تنبه لما تقول تلك المرأة ، وانتبه لهذا الحديث ، إنها تعرف بأمره وتعرف بـــأمري معـــه ، وتعرف أنه مالي وإستثماري في ذلك الفتى النابه الواعد وتعرف أنه سندي القادم في الحياة المقبلة ، تعرف بيتهما وتعرف مدرسته ، ماذا تقول تلك المرأة ؟ تخطفه ، تقتله ، مشاجرة تقوم من يغرز في قلبـــه سكين ،قدماي لم تعد يحملاني ، ما لها تهاجمني وأنا قعيد كالمشلول على كرسي الصالون ، أنا ثمل ليس من عطرها الباريسي بل مـــن وقع كلماتها عليّ كففت عن مناورتها أو حتى مداعبتها أنها تتحدث عن بنيامين معبدي الذي أشيده ، تريد أن ترتدي ثـــوب شمشـــون ليهدم هذا المعبد ، لا .. لا ، لن إدعها تفعـــل ذلـــك ، لكـــني لا أستطيع الرد على تلك المرأة فلتذهب تلك المرأة من أمـــامي الآن ، ليتها تسرع بالغروب عن وجهي ، لا أريد منها شئ ، لا أريـــد أن

أطأها ، فلتذهب من حيث أتت ، ليتها لا تكمل حديثها بالتهديد لحياة بنيامين ، فبعده لن تكن لي قيمة ، لقد فرط في كل شئ من قبل أسوة بوالدي الذي سبق له أن فرط في المال ، وأن فرط في السمعة ، لا مال لنا ولسمعة لي تضعني في مصاف إنقياء اليهود رغم نسبي اليهودي الصافي المقدس ، لكن علمانيو اليهود لم يعد يستهويهم القداسة والعرق ، بل المال ونظافة العمل الديني وأنا لا أملك منهما شئ ، كل ما أملكه هو نباهة بنيامين الخارقة فوق العادة ، ليكون في مصاف أينشتين ، ونوبل وسيجموند فرويد من قبلهم أسحق نيوتن ، سيسافر لإلى ألمانيا ليكمل تعليمه ، الكل يساعدنا لهذا الغرض فقط دون غيره ، وها هي تلك المرأة المسلمة الأمية النجسة تهدد حياة بنيامين ، لا لن أسمح لها بذلك ، عليها لعنة الرب لم تفسد يومي فقط بل أفسدت أيامي القادمة أيضاً ، أشكر الرب أنها ذهبت ، لعلها تذهب بلا عودة ، ولا تظهر في حياتي مرة أخرى ، أه ..قد حل عليّ التعب ، آه لازال جسدي لا يستطيع الحركة ، ما أجلس على تلك المقعد هكذا فقد ذهبت تلك المرأة من أكثر من ساعتين ، وتركتني في بحر هموم لم أفكر فيه قط من قيل ، لابد أن أقوم ، وأن أذهب .. أخرج من المترل عسى أن أنسى ما حدث كل ما حدث ، رغم كل ذلك فإن عطرها ورائحة عرقها الذي كان يتصبب منها لازال في أنفي ، ملمس أجزاء جسدها التى استطعت في مناوراتي لها أن ألمسها مع أنها مجرد لمسات لم تدم لم أنسها في مرأة قبلها من قبل ، لا..لا تلك المرأة شيطانة ، بل هي

الشيطان نفسه ، إنها ترودني عن أهل ديني وعشيرتي ، تـراودني أن أشي بهم ، لا تلك المرأة تهددني ، لا يجب عليّ أن أشـتاق لهـا أو مضاجعتها ، إنها تسحبني لشئ آخر ، إنها تستغل نقطة ضعفي ، لا دع كل ذلك وأخرج ،أخبر صروف بالأمر ، أخبر أسـحاق بـن بالصروف بالأمر ربما يجدوا لك مخرج ، لا ..لا تخبر أحـد ، قـد يسبب ذلك إستفحالاً للأمر فتفعل تلك المرأة مـا يهـدد سـلامة بنيامين ، لن أنبس بكلمة لأحد مهما كان ، سأشرب ، وسـأبحث عن فريسة أقضي معها ليلتي الغبراء تلك عسى أن أنسى ما حـدث لي فيها .

اشتد الصراع داخل يوسف ، وشعر أن هـذا الأمـر أصـبح كابوساً بالفعل كدّر مزاجه الذي لم يكدره حدث من قبل ، بـان عليه همه ، وانشغال باله ، وكان يبعد عن إلتقاء ، أو لقاء تلك المرأة بأي شكل من الأشكال ، ولكن الأمر إحتكم عليه وأسـتحكم ، و لم يعد أمامه إلا الخيار بين أن يقبل منها ما تعرضه عليـه مـن أن تسمح له بأن يطأها مقابل أن يعترف عن أصحاب البضاعة الـتي حبس من أجلها السيد بك زوجها ،وقـد زادت أيضـاً ضـمان سلامته هو شخصياً على ألا تأتي سيرته بأي شكل من الأشكال في التحقيقات ، وضمان ذلك إذا ما أرشد عن الفاعلين الحقيقـيين أو تنفذ تهديدها لحياة بنيامين في لمح البصر ما هو إلا ترنـك تليفـون للأسكندرية ، وهناك من سيقوم بالمهمة ولو كان في برج مشـيد ،

فوجب عليه أن يختار، ويقرر وبسرعة ، فقط طال حبس السيد بك ، في ذلك اليوم لم يخرج يوسف الشامي من مترلــه كعادتــه ، و لم يكن أن هناك من يراقبه من قرب ، ألا وهو هريدي الصعيدي الذي حكت له بديعة الأمر بالكامل عندما كانت تبحث عــن ســكن يوسف الشامي ، وكان اللقاء بينهما بأحداثه في سياق رواية بديعة ، كمن يوسف في مسكنه يفكر في الأمر ، أيشي بأصحابه وسره ؟ وما المقابل ؟ أ من أجل أن يطأ أمرأة من النساء ؟ أيبعث يهوذا من جديد ، فيشي بالمسيح من أجل ثلاثون فضة ؟ نعم هو يريــدها ، ويريدها بشدة ، فمنذ أن حضرت إليه ورأها لم تهفو نفسه لأمــرأة أخرى ، تراه قد زهد النساء على يديها ؟ لا ربما خمدت رغباته في النساء لما أصابه من فكر ، أو لربما من خوفه من تهديــدها الــذي أصبح حقيقي لا مجرد تهديدات لحياة بنيامين ، لابد أن يأخذ قرار ، فموعد اللقاء الفاصل غداً لأعلن لها عن ما قررته ، لم يعد أمــامي وقت ، ماذا سأقول لها تلك المرأة ؟ ، هل أقبل ، هل أرفض ، ولو رفضت ، مادا أنا فاعل لحماية بنيامين من بطشها ؟ يا أليهو يارب اليهود أجرني مما أنا فيه وأعانيه ،هكذا كان ينادي يوسف على ربه ، يتغلب النوم على يوسف رغم ان الليل لم يجــن ، و لم تنتشــب أظافره في تلك الليلة بعد ، يغفو ويصحو على كوابيس تداهمــه ، يقوم من سريره يعاقر كل أنواع الخمر التي لديه أضعفها وأقواهــا أجودها وأرداءها عساه أن تغيّبه أو تغيب فكره قليلاً لكنه يفشل ، يعود لنفس الفكرة ، يقبل او لا يقبل ، ولكنه في النهاية قرر ، واتخذ

القرار المناسب ، فقد أعمل فكره بطريقة اليهود ، الهدف الأول له وإنا لم يكن الأوحد سلامة "ننوس عين أمه" بنيامين كما أطلقت عليه المعلمة ، وهي قد لا تعلم أنه ليس كذلك فحسب بل هذا الصبي هو شقفة قلب التعوس خاله ، وإيضاً أمل يهود مصر كلهم، الذين سيتصيتون به ، وسيحفظ جميلهم عندما يتم تعليمه ويظهر بذوخه والذي سيتواكب مع موعدهم بالعودة إلى أرض الميعاد الذي قرب حينه طبقاً لمخططهم الذي دائماً يتسم بالدقة سواءاً بالتنفيذ والموعد ، ستواكب ذلك مع بزوغ بنيامين ، والذي لابد أته سيكون على رأس الدولة التي ستنشأ بأرض اليعاد والتي سيأيي لها يهود الشتات من كل العالم ، لتعود مملكة أورشليم ، ليبن المعبد من جديد مكان المعبد المسلوب والذي أنشئ عل أطلاله ما يدعيه المسلمين المسجد الأقصى الذي يعتبروها القبلة الأولى لهم ، إذن فحياة وسلامة بنيامين واجب ديني مقدس ، يجب تنفيذه ، فهو الغاية ، والغاية عند اليهود أتفقت مع الفكر الميكيفيلي ، في أن الغاية تبرر الوسيلة ، ولذلك فعل اليهود من الأفعال التي كانت تبرر الغاية تلك الأفعال مهما كانت بشاعتها ، فلا ضرر من أن أضحي ببعض الاشخاص ، ولن يصيبهم إلا سجن لبضع سنوات يقضونها وستمر حتماً عليهم وخلفهم من يكفلهم ، فليس لأسحاق بن صروف زوجة ولا ولد يشتاق إليه، بقلبه الجامد الذي بين جانبه ، وكذلك ابن كوهين الذي يبدو عليه القليل من الهطل ، وأبويهما معهما ما يستطيعان أن يصرفا عليهما بالسجن ما يجعلهما أمراء لا

سجناء، طالما هناك من يصرف عنهما ، كما أنهما بالفعل والحق يقال أنهم هم أصحاب البضاعة ، واليهود يعرفون ذلك جيداً ، فإن سجننا بسببها ذاد وضعهما الوطني وأصبحا بطلين وطنيين حقيقيين ، قد يلخلعون عليهما لباس دينياً جهاديا ، يزيد من وضعهما كجهاديين عند دخولهما أرض الميعاد بعد أن يقضيا فترة حبسهما المقدس تلك ، كما أنهما لن يشعرا بحرمان قط ، فليس لهمت في النساء مثلي ولا معاقرة الخمر ولا حتى الدخان بأنواعه وأشكاله ، فأسحاق كل همه تعاليم التوراة والتلمود ، وتنفيذ ما يكلف به من مهام يعتبرها واجب ديني مقدس مهما كان فيها من أعنال شيطانية ، أم ابن صروف كل همه الطعام بكل أشكاله وأنواعه وأكثرها الحلوى والجاتوه الأيطالي الصنع ، سهلة أن تدخل له في محبسه ، أما أنا الفقير الذي لا أملك من الدنيا إلا بنيامين ، فليس أمامي من خيار سوى المحافظة عليه ، ليس من أجلي فقط بل من أجل الوطن الكبير أسرائيل ، وأمري لن يتكشّف لأحد أني الواشي كما أكدت لي تلك المرأة ، وإن تكشّف امر بعد ذلك سأسوق دفوعي ، وسيزول الأثر بفعل بنيامين عندما يبزغ نجمه وسأخبرهم بحرصي على سلامته ، ولولا تصرفي تلك ما كان أمر بزوغه سينفذ ، زمن جملة أفعالهم القذرة فعلت فعلتي التي سيلوموني عليها ، هكذا أستقر فكر يوسف وأتفق مع ما وصل إليه من قرار مع رغبته المحمومة من التيل من المعلمة نجية التي بالفعل أشعلت بل وأستدعت كل رغباته في النساء وأختزالها فيها ، ولم يطأ أي من النساء كأنه يحافظ على

بكوريته لها ، وكأن تلك البكورية بعثت فيه من جديد ، الأمر الذي أثلج صدره ، وأراح تفكيره المجهد مما جعله ينام نوماً عميقاً بل كوابيس ولا هواجس ولا قلق حتى طلع عليه النهار ولازال في نومه كأنه نام كعادته في ساعة متأخرة من الليل كعادته الدائمة ، نام وصحى من نومه ولأول مرة بدون صداع من أثر عدم شربه الخمر آخر الليل بل أكتفى بما شربه أول ساعات الليل أثناء فكره العميق .

تأكد يوسف أن المرسال قد وصل للمعلمة ، وكما تأكد الميعاد، لن يدعها هذه المرة تخرج من بين يديه إلا وقد نال منها مبتغاه ، رغم أن الموعد صباحاً ، هو موعد حديث وتحديد لكل شئ في تلك الصفقة ، سيفعل لها ما تريد ، وستفعل له ما يريد ، وأهم ما يريد سلامة ابن أخته ، يكسب بعضاً من الوقت ليدبر أمر خروج الفتى الآمن من مصر ، حتى يتفرغ لها ، وينال منها كل ما يريد دو ضغط عليه ، ولكن ساروه هاجس أنها ربما تراوغه ، وتحاول أن تصل لما تبغي دون أن يصل هو لما يبغي ، ولكنه طمئن نفسه أنه لن يفعل طالما هي لن تفعل ، وإن راوغت ، فمن تراوغ ؟ أتراوغ يهودي ؟ وهم من خلقوا المراوغة حتى مع أنبيائهم ، "تباً لها إن راوغت" ، هكذا قال يوسف لنفسه .

ما توقعه يوسف حدث بالفعل إثناء لقاء المعلمة ، والتي ركبت سيارته وانطلق بها للهرم متجاوزاً شارع الهرم بأكمله وقد بدأ الحديث منذ أن ركبت ، وقد حاول أن يغير مساره ليصطحبها لشقته بشارع عماد الدين ، وأمام إصرارها من أن نور النهار فضّاح ، وقد يراها أحد ، من التجار أو حتى الحمارين المنشرين على جانبي مساره حتى بلوغ شارع عماد الدين ، فانصاع لطلبها ، حيث أن اليوم مخصص للإتفاق فقط أم التنفيذ فلازال الوقت به متسع ، و لم تحرمه من إسقاط دلالها عليه وهي تخبره لما العجلة "أمسك نفسك شوية يارجل" واتبعتها بضحكة كادت تعصف بلبّه ، أثرت على تحكمه في مقود السيارة ،فأنحرفت قليلاً عن مسارها بسرعته مما جعلها تلاحقه بضحكات متتالية ناعمة ، تمالك نفسه بصعوبة ،حتى رست السيارة على هضبه الهرم ، فبدأ الحديث ، وإن كان بدايته ناعمة ، سرعان ما توتر من أثر تمسك كل منهما ، بالبدء في تنفيذ طلبه قبل الآخر ، وإن إتفقا على سلامة بنيامين بادئ ذي بدء ، وزاد التوتر بينهما بصورة كاد أن ينتهي اللقاء دون اتفاق ، هي تريد أن ينهي أمر محبس السيد بك الذي أُدخل السجن ظلماً ، وهو يريد أن ينال ما يرغب منها ، ما يضمن له إن هو فعل ذلك أن تفي بوعودها ، تأكيدها له إنها ليست يهودية مثله ، وأنها لن تتملص من وعدها ، فهذا دين عليها في رقبتها ، هو يبالغ في عدم تصديقها ، كنوع من المماطلة كما أن رغبته الملحّة فيها تكاد أن تنفجر فيها ، فيأخذها عنوة لولا وجود

أعداد هائلة من مريدي تلك المنطقة في هذه الساعة من اليوم ، ظل الحوار المحتدم بينهما لمدة يقطعه بعض لحظات الصمت ، قد يكون فرصة لإي منهما في أن يغير رأيه للوصول ، فكان يدور حديث الصمت داخل النفوس ، ولكن عدم الثقة المتبادلة منهم ، تعلن عن مكنون كل نفس فينتهي الأمر بالرفض لكلٍ منهما ، وإصراره على رأيه ، وفي لحظة من لحظات الصمت ، ظهر على الصورة بينهما ذلك المصوراتي اليهودي وهو يحمل كامل عدته ، ويغريهم بالحصول على صورة تذكارية لهما كحبيبين تحت سفح الهرم ، وسرعان ما تعرف على يوسف ويوسف تعرف عليه وهو من بني جلدته ، فطلب منه يوسف بلطف الإنصراف حيث أن الأمر لا يسمح بالتصاوير ، فانصرف "المصوراتي" ، وإن كان لم يذهب بعيداً عنهما .

ولما اشتد وطيس الحوار وكادا أن يهما بالإنصراف كرغبة المعلمة ، نظراً لتأخرها عن موعد الوكالة ، خطرت ليوسف فكرة الجهنمية ، التي سيوافق على كل ما تطلبه هي ، دون إبطاء أو تأخير ، بل عنده الأستعداد الكامل في أنه سيذهب اليوم للبوليس ويقر بكل ما يعرف ، حتى يخرج السيد بك من محبسه ، شريطةُ أن توافق هي على ما يطلبه منها وتنفذه الآن ، وبالطبع ليس وطأها هنا في الشارع ، وتأجله كرغبتها بعد خروج السيد بك العيسيلي زوجها من محبسه ، وبذلك يكون أوفى وتنازل كي ترضى هي ،

فانفرجت أسارير المعلمة ، وأحست بأن الله قد أستجاب لدعاها ، اللهم دبر لي أمري فأنا لا أحسن التدبير، واستعجلته في سماع مـا تريد أن يفعله هو للوفاء بوعده ، صعقها ما يطلبه منها من إن توافق على أن يتم تصويرها معه في أوضاع قد تكون مخلة بعض الأمـر ، على أن يحتفظ هو بتلك الصور كضمانة له كي تنفذ هـي بـاقي وعدها ، فإن استجابت ، كان بها ، وإن لم تستجب أو ماطلـت أرسل تلك الصور للكل الناس والصحف وحتى للسـيد بـك في محبسه يدخلها له مع وجبة طعام غالية الثمن ، تعقّد الأمـر مـرة أخرى وكاد الفشل يلوح في الأفق ، ودار الصراع النفسي داخـل بديعة بشكل لم تتعرض له من قبل ، وأحست باختناق نَفَسَـها ، كما لم أنها داخل المخرج الذي هربت منه يـوم حريـق الملجـأ وكادت أن يغمي عليها ، وها هو يضغط عليه بالحديث ، معلناً أنها تنازل عن الكثير وهي لا تريد تقديم أي تنازل من جهاتها دليل على أنها مبيتةً النية في عدم التنفيذ ، وهو لن يخيل عليه الأمر ، غهو لديه من الخبرة ، والدراية والتوجس ، ناهيك على أنه يهودي الملة ، و لم يخلق على سطح البرية من يضحك على يهودي ، سـوى نبـيكم محمد .

أحتدم الأمر على بديعة وأحست أنه لا مناص ، ولا مفـر ، ولـن يخرج السيد بك من محبسه أمام خبث ذلك الرجل ، وحله الشيطاني تلك الذي سيبتزها به طول العمر ، ووسـط كلماتـه المترطمـة

كأمواج البحر ، ووسط ذلك الزخم ، استجمعت قدرتها التفكيرية ، في أنها تشترط عليه الموافقة بشروط لها يجب الألتزام بتنفيذها وهي أن يكون معه هو كل من تلك التصاوير وكـذلك مـا يسـمى "العفريتة" النيجاتف ، ولا تكون مع المصوراتي على أن تكون معـه مجتمعان عند كل لقاء يتم بينهما لضمان عدم نشرهما أو التفـريط فيهما لأي شخص آخر مهما كان حرصاً على سمعتها ، قالت لـه ذلك بدلال تعرف هي أثره عليه ، وقد والفق على الفور على تلك الشروط وهي كانت قد إتخذت قراراً مع نفسها من أنها سـتكلف هريد الصعيدي حارس العقار الذي يقطنه يوسف بالإستيلاء علـى تلك الصور والنيجاتيف ، فلا يملك بعد ذلك من أمرها شيء ، هذا ما فكرت فيه بديعة للخروج من تلك الورطة ، والله المستعان وبيده الأمر ومقنة في أنه سبحانه وتعالى لن يخذلها ، وأثناء تفكيرها العميق تلك كان يوسف استدعى المصوراتي الذي لباه على عجل وأمـره بوض عدة التصوير والركوب في الكرسي الخلفي ، وأنطلق بالسيارة ، متجهاً قصى غرب الهرم الأكبر حيث تقل أعداد الناس وتكاد أن تنعدم تقريباً ، ولإن كان هذا المكان المشؤم الذي سبق له أن قتـل فتاة نزلة السمان فيه ولكن لم يوجل قلبه فقلبـه غُلْـف ، وفهـم المصوراتي ما يريده يوسف من تلك الصور بعد أن أسر له بعـض الكلمات باللغة العبرية لم تفهمها المعلمـة ، وإن نهرتهمـا عـن الحديث بتلك اللغة كي تفهم ما يدور حولها ، فانصاعا للأمر لكن بعد أن أوصل له ما يريده منها ، وهنا أبدع هذا المصور في تصوير

أوضاع ساخنة وافقت عليه بديعة على مضض منها ، وتفوق ذلك المصور وكأنه مخرج لإفلام الرديئة التي تخاطب الغرائـــز الجنســـية ، وتنفست بديعة الصعداء بعد أن أنتهى الأمر وكان لايزال يراودهـــا الشعور أنها مختنقة النَفَس ، وتتزكم أنفها برائحة دخان حريق الملجأ ولم تفهم أو تجد سبباً لذلك الأحساس داخلها .

خرج كل من يوسف وبديعة ، من تلك المعركة ظافراً ، هو ظفـــر بصور سيجعلها تركع تحت قدميه ،ولا تخلف له أمراً ، وهي ظفرت بإعترافه على أصدقائه ، وحدد للبوليس أصحاب تلك البضـــاعة ، وممن جلبوها ، الذي داهمتهم قوة من الأمن ليعثروا على نفس النوع من الأسلحة والمخدرات عليها نفس العلامـــات ، وأقـــروا بـــأنهم جلبوها وسلموها لابن صروف وابن كوهين الســـاعاتي ، وأخـــر ذكروه ، ولكن كاتفاقها مع البوليس اعتـــبروه مرشـــداً وأدلـــوا باعترفات ، لم يستطيع كلاً منهما من إنكار الموضوع وثبتت عليهم التهمة ، دون التطرق ليوسف في الأمر، لا بالتنويه أو أي شئ آخر ، وخرج السيد بك من محبسه .

أيقن يوسف أن نقطة ضعفه هي ابن أخته ، وقد تضغط عليـــه المعلمة بتلك الورقة ، فقد علم خبثها ، عندما اكتشف بعد يـــومين فقط أن هناك يد أمتدت لكل جزء في شقته بحثاً عن شئ ما ، دون سرقة أي شئ من الشقة ، فعلم أن من فعل ذلـــك هـــو هريـــدي

الصعيدي ، وبإيعاز من المعلمة كان يبحث عن الصور والنيجاتيف ، والذي كان يحتفظ بهم في مكان لا يمكن لأحد الوصول إليهـــا ، وبذلك تكون فشلت محاولة المعلمة من الحصـــول علـــى الصـــور والنيجاتيف ، فلن يبقى لها إلا محاولة الضغط علية بورقة ابن رحيل ، فقرر أن يسرع بتهريب الفتى وسفره إلى ألمانيا لأستكمال تعليمه بالصورة الصحيحة كونه سيصبح أحد علماء اليهـــود ، بالفعـــل استطاع غصطحاب رحيل وابنها وركبوا ثلاثتهم ســـفينة بضـــاعة متجهة إلى اليونان ومنها سيكون في إنتظارهم من يقل الأثـــنين إلي ألمانيا ، ويعود هو لمصر ، فلازال له في مصر مبتغى لم ينتهي منـــه ، وهو حلب مصر ذاتها ، كي يوفر مصاريف تعليم ابن أخته ، حيث التعليم في أوروبا بالمقابل لا بالمجانية حتى يثبت بنيامين تفوقه، كما أن ليوسف حقوق كثيرة في مصر منها حقه لدى بديعة التي تـــاق بالفعل لها ، وخاصة بعدما تلمس كل جزء فيها ، أثناء التصـــوير ، وكاد وقتها أن يتطاول في الأمر ولكن كان منعها له مســـتميت ، عندما كان يزيد عن الحد .

مكث يوسف في سفريته تلك مدة تجاوزت الشـــهر تقريبـــاً ، ولكنه عاد ، وليته ما عاد ، ولو علم ما سيحدث له ماكان عـــاد ، ولكن أمر الله لا راد له، بعد أن استراح من مشقة السفر ، أرســـل للمعلمة ليعلن عن ظهوره المفاجئ بعد غيابه المفاجئ أيضـــاً ، ولا يعلم أنها علمت بعودته ليس من هريدي الصعيدي بل من الضـــابط

أبراهيم حمدي الذي رصد غيابه وتهريبه لابن أخه واخته راحيل ، ولكن التحريات أتت متأخرة فلم يستطع البوليس إفشال العملية ، وكان ظهوره مرة أخرى غريب المعنى لدى البوليس، الذي ظن أنه قد هاجر مثل من هاجروا بطريقة غير شرعية لأوروبا والتي كانت قد بدأت على استيحاء في تلك الفترة ، ولكن كانت عين البوليس ترصد نشاطاته ضمن من ترصد من اليهود .

أرسل يوسف رسالته للمطالبة بالدين ، بعد أن أستراح ليس من جهد السفر فحسب بل من ما يهدده ، فقد تفرغ تماماً كي ينال من فريسته، وسرعان ما جاء الرد ، وتحدد الموعد ، وأعيد على مسامعه الشروط ، وأكدها مع المرسال ، وكان اللقاء في الوقت والمكان المحدد ، كان يُمني نفسه بطيب الثمرة التي سيقطفها ، وكم ضحى للولوج لتلك الشجرة ، فقد ضحى بدينه نفسه ، من أجلها ، وها هو الوقت قد حان ،وما هي إلا سويعات كانت تمر عليه بطيئة ، أما الطرف الآخر فقد كانت تلك السويعات تمر ، بسرعة أكبر من معدلها الطبيعي ، وكان اللقاء ، وتأكدت المعلمة من وجود الصور والنيجاتيف ، لحظة ركوبها السيارة ، وانطلق يوسف مسرعاً إبتغاء سرعة الوصول ، أما المعلمة تمنت لو أن حادث يحدث للسيارة فينتهي الأمر ، وتنتهي مما هي فيه ، الكل في صمت ولكنه صمت الأحاديث النفسية والتي تكاد أن تخرج زفرات من كل منهما ، ولكن إن خرجت سيسمعها كل البشر حتى الهاجعين في

فراشهم في البيوت التي لازالت نائمة في غصة ظلام الفجر ، ساد الصمت حتى وصلا إلى ذلك المكان الذي سبق له يوسف أن إنقض على فريسته فتاة نزلة السمان ، و لم يهتز من داخله عندما جال بخاطره ذكرها ، وتذكر ما فعله بها ، وتمنى لو شربت المعلمة الخمر ، فأكيد أنها ستثمل هي أيضاً ، فيفعل ما يحلو له ، كما فعل مع تلك الفتاة ، ولكنه لن يقتلها كما السابقة ، فالمعلمة هي كنزه الذي هداه له الزمن ، وما معه من وسيلة إبتزاز ، فلن يكتفي فقط بتلبية طلباته الجنسية فحسب بل بطلباته المادية أيضاً ولن تتأخر أو تماطل ، لذلك سيحافظ عليها مثل عينه، كما كان يحافظ على بنيامين ابن اخته ، وهنا أطلق ضحكته الفحشاء المتقطعة القبيحة العالية الصوت ، وفي تلك اللحظة كان يترل من السيارة لوازم الجلسة التي سيحضرها الشيطان دون دعوة من أحد ، وراح بسرعة المتمرس يعد مسرحه إعداداً منمقاً ، وكانت المعلمة بين التردد والمواجهة كمن تقدم رِجْل وتأخر الأخرى ، ولكن أين المفر ، فترلت بتكاسل من السيارة ، وراحت تجاريه ، بدلال ، و فاتحاً زراعيه مستدعياً إياها ، كما يستدعى الطفل المدلل ، ولكنها طلبت منه فتح زجاجة الخمر التي كانت معه وإعداد كأسين لزوم الفرفشة ، فعدل من جلسته ، وتناول الزجاجة من مرقدها وسط الثلج من الشمبنيرة (حاوية الخمر) بعد أن أزاح عنها الفوطة البيضاء التي كانت تغطي كل الحاوية شمبنيرة لمنع تسرب الحرارة فتقلل من برودة الثلج والزجاجة ، كي تطول فترة البرودة لأكبر وقت ممكن ، وتقدمت

بديعة بخطوات وئيدة بها دلال ، يهتز له كل منطقة في جسـدها ، متذكرة ما كانت تفعله خالتها سكينة في مواقف مشابهة لم تكـن هي تفهمها وهي صغيرة ولكنها فهمتها الآن ، حتى قربت منه تماماً ، وعندما إلتقطت منه الكأس ، حاولت الرجوع للخلف لخطوة أو أقل إلا أنه بادره بجذبة من زراعها وكانت هي في تلـك اللحظـة متوقعة تلك الجذبة ، فسكبت الكأس التي كانت بيدها الأخـرى على ملابسها ، وتلك كانت خطتها ، وراحت تندب وتلومـه ، على المشكلة التي أوقعها فيها بتسرعه فالعباية سيلتق بها رائحة الخمر وأن ملابسها الداخلية أيضاً وصلت لها الخمر ، وراحت تسـكب على نفسها مياهاً من الشمبنيرة التي بها ماء من ذوبان الثلج وتمسح بالفوطة البيضاء عبايتها ، وطلب منها خلعها ، وبالفعـل خلعتـها بسهولة ليظهر ملابسها ومفاتنها الداخلية ، لتشعل نـاره أكثـر، ولكنها بدلال تطلب منه أن يأخذ العباءة لوضعها على السيارة كي تجف، وبالفعل نهض وقام وأخذ لنشرها ، في الوقت التي كانـت أخرجت من طي سروالها لفافة الداطورة الـتي أعـدتها مسـبقا ، وكانت يدها ترتعش بشدة ، فهو بالفعل متوترة من الداخل لكـن مظهرها الخاجي متماسكاً من ناحية الشكل ، وأمام نظراته الخاطفة التي يرسلها هو أثناء ذهابه ناحية السيارة ، كان توترهـا يزيـد ، ولكنه بالفعل استطاعت أن تفتح اللفافة ولكن المسحوق الذي كان بها من شدة الرعشة التي انتابتها لم تستطيع وضع كامل الكميـة ، فما دخل من اللفافة لداخل الزجاجة إلا القليل والباقي كان مصيره

جارج زجاجة الخمر ،مما زاد من قلقها أكثر فتلك الكمية لن تؤتي مفعولها المطلوب مع مثل ذلك الرجل المعتاد على السكر والمخدرات ، فأسلمت أمرها لله ، والموقنة أن الله لن يخذلها ، وعـاد للفـراش يوسف الشامي ، عودة المتهلف ، وكان يخلع ملابسه الخارجية أثناء العودة من السيارة حتى الفرش ، وكانت أوشكت على الإنتهاء من فعلتها التي لم تكتمل ، مدت جسمها على الفراش بدلال مصطنع فألقى بنفسه عليها كما يفعل أبطال الغوص ولكنها بحركة خفيفـة استدارت ليصتدم بالأرض بدلاً من أن يصتدم بها ، وكانت ترسـل ضحكاتها الأنثوية التي تزيد ما به من لهيب ، وأورت أليه أن يشرب من الزجاجة متحدية رجولته وقدرته في عدم الثمل ، بالفعل تناول الزجاجة وألقاها في جوفه ، ولم يترلها إلا بعد أن فرغـت تمامـاً، وألقى بها قدر ما استطاعت يده ، وألقى بنفسه بكل ما أوتي مـن قوة كانت فيه أو زادت من تأثير الخمر والقليل من الداطورة الـتي خلطت بالخمر ، وأصبح رغم قلة وزنه ، وكأن وزنـه تضـاعف مرات ، ومع توتر المعلمة أيضاً لم تكن تستطيع السـيطرة عليـه ، وراح يكبش بكامل كفيه وفمه كل منطقة في جسد بديعة ، بعنف بلا رحمة ، وكأنه الغريق الذي يعافر الغـرق ، حـتى كـادت أن تستسلم بديعة له من عدم القدرة على منعه ، وراح يمد يده لإماكن ليست مباحة ، واستطاع أن يخلع ما يسترها تمزيقاً لا خلعـاً ، وفي لحظة هوادة منه كي يخلع سرواله أو يزيح جزء منه علـى الأقـل ،تستثمرت بديعة تلك الهدنة في هجومه لتنقلب عليه مبدلةً الوضـع

السابق الذي كانت مشلولة فيه لقلة العزم عكس ما حـــدث الآن ، فاستجمعت قدرتها ، ولكنها فشلت من الفرار منه لتعلقه بها بكلتـــا يديه ورجليه كذلك ، حاولت الفرار ، لكنها فشلت تماماً لتحكمه القوي فيها ، فلم تجد بد من ضربه بالشامبنيرة "حاوية الخمر والثلج والفوطة" التي كانت في متناولها ، والتي كانت فارغة من زجاجـــة الخمر التي كان شربها وألقاها بعيداً ، وعندما أمسكت بالشامبانيرة لتضربه بها ، وضع يده في مسار الضربة فطاحت منها الشـــامبانيرة لتسقط بعيداً ولكن يسقط على وجهه الماء الذي كان فيها وكذلك الفوطة المبللة التي كانت تغطي زجاجة الخمر والتي سقطت في الماء الناتج من ذوبان الثلج بعد أن خلت الحاوية من الزجاجة ، الفوطة سقطت على وجهه يا الهول ، لم تكن تلك الفوطة وقتـــها فوطـــة الخمر بل هي فوطة ريا وسكينة ، تلك الفوطة التي أزهقت على يد أهلها الكثير من الضحايا ، كانت تنظر من خلفهم لترى فعلتـــهم ، في أول مرة تسرب منها بولها دون أن تدري ، ولكن بعـــد ذلـــك أصبح المشهد طبيعي بالنسبة لها ، أما الآن ماذا تفعل ، احتكم عليه الأمر أنه الشر الذي أودعته مع ملابسها البالية التي تركتها يـــوم أن اشترى لها الصول محمد الشحات ، يوم أن أخذها لبيتـــه لتعـــيش عيشة الأدميين التي لم تكن تعرفها من قبل ، وكان خروجها الأول ، و ودعت الشر ، يوم أن ودعت الأسكندرية في خروجها الثالث بعد خروجها الثاني من حريق الملجأ ، نست الشر وفعله وكانـــت تسميها "الأيام البور" هاهو الشر عليها يحتكم ويأخذها لنفس طريق

ريا أمها وسكينة خالتها ، ها هي ترى الكابوس الذي كان يطاردها ، ذلك الخندق الناري التي تقف أماها ريا في الجانب الآخـــر منـــه تسدعيها للعبور والقفز ، وهي مترددة ويمسك بكلتا يديها محمـــد الشحات وزوجته أم الشحات لمنعها من القفـــز ، هـــذه المـــرة لم تستسلم لمقاومة محمد الشحات وزوجته ، بل تخلصت بقوة منهما ، قافزة فوق الخندق الناري لتعبر لبر الندامة حيث تقف أمها ، تمسك بالفوطة بكل غل السنين بكل شر رأته في حياتها ، بكل ألم سببته لها تعذيب جدتها أم ريا ، راحت تضغت على الفوطة وتحتها أنف وفم يوسف الشامي ، مانعة دخول أي شهيق أو زفير لداخل جســـده ، فشل في محاولاته للخلاص من ذلك الوضع وبدأ جســـده المشـــبع بالخمر والداطورة ، بعد أن ارتفع نسبة ثاني أكسيد الكربون بداخله ، بدأ بالهمود والخمود، فقلت مقاومته لها حتى تلاشت تقريباً ولكنه كانت لازالت جاثمة فوق أنفاسه ، وهي تصرخ بصوت دفين ولكنه مسموع له جلياً ، موت يا ابن الكلاب ، داني بديعة بنـــت ريـــا وسكينة يا كلب ، وكانت تقولها بشكل متتالي وبـــنفس الطيقـــة الصوتية المكتومة وكأنها تخرجها من سواد ما عاشته من قبـــل ، ولم تتركه إلا لا بعد أن خارت قواها هي من فرط ما بذلت ، وأيقنـــت تماماً أنه قضى نحبه ، عندما وجدته لا يتحرك البتة ، رغم محاولتـــها إيقاظه لا ندماً على ما فعلت بل للتأكد من فعلها فيـــه ، في ذلـــك الوقت كان يوسف في شبه إغماءة شديدة لا يستطيع حتى الحـــراك أو إبداء أي رد فعل ، كما لو كان أصيب بشلل تام في جميع وظائفه

الحيوية وكاد أن ينقطع نفسه بسبب إمتلاء رأتيه بثـاني أكسـيد الكربون والذي تفاعل مع الكحـول الـذي كـان في الخمـر ، فأصبحت رأتيه كأنوبتين إختبار ممتلئتين بالغاز الـذي لـيس هـو أوكسجين بالطبع ، وقد قل هذا أيضاً في دمه الموصـل للمـخ ، فحدث له موت مؤقت ، كان في الروق الأخير ، ينازع المـوت في صمت ، لم يسمع إلا صيحتها تلك أنا بديعة بنت ريا وسكينة يـا كلب ، وأحس بما حوله مرة أخرى ولكنه لا يستطيع حتى التنفس بشكل عادي ، إنه يحتضر ، ولم يشغله في تلك اللحظة ، الإستغفار عما فعله ، أو الإقرار بوحدنية الله ، أو سرد كلمات الإحتضار التي قد يكون تعلمها من الدين اليهودي العظيم ، أو ما أملي عليه حتى في التلمود ، لا ، لم يتذكر شئ من هذا القبيل كـون أن لإيمانـه ملطخاً بالصهيونية التي حلت بديلة لذلك الدين السماوي ، تـذكر الشر فقط ، لابد أن يفعل شراً أيضاً وقت الإحتضار ، هكذا اختار ، فحبا كما يحبو الطفل ، حتى وصل لركية النار المطفية التي أطفئتها بديعة بعد أن حرقت الصور والنيجاتيف بها ، وأمسك قطعة مـن الخشب المحروق من طرف والطرف الآخر لم يحترق لوجوده خـاج النار ، وأكمل حبوه بمعاناة شديدة خارت فيه قواه أكثر من مرة ، ولكنه كان يقاوم الموت ،كما لوكان ما سيفعله سيعيده للحياة مرة أخرى ، ولكنه استمر في الحبو حتى وصل إلى الحجر الملقي علـى الأرض والساقط من فعل السنين بالهرم الأكبر ، وراح بتلك المعاناة التي هو فيها يكتب بالفحم باللون الأسود على الحجر "بديعـة" ثم

يسقط على الجانب الآخر ، وسرعان ما يفيق ، فيكتب "بنت ريا" ثم يسقط ، ويفيق ليكتب "وسكينة" ثم ينقلب لمدة طويلة يقاوم فيها الموت ، ولكنه يأبى ذلك حتى يتم وشايته ، فيفيق فيكتب "قتلتـــ" ولكنه ينقلب القلبة الأخيرة التي لن ولم يفق منها بعد ذلك ، لتكتمل عبارته الواشية "بديعة بنت ريا سكينة قتلتـــ" ولم يمهله القدر كتابة الينون والياء وكأنهم أبيا التسجيل ، وراحت روح يوسف حيث تروح الخبيثة ولايعلم مواضعها إلا الله ، فهي من علمه هو فقط دون غيره ، راح يوسف نفسه هباء، كما راح إستثماره في ابن اخته راشيل هباءاً أيضاً ، فقد أتت الديموقراطية في ألمانيا بالنازيين ، والتي قتلت وحرقت اليهود وخاصة العلماء ومنهم ذلك الفتى الذي أصبح عالماً مشهوداً له بعلمه ، ولكن ليهوديته حرق مع من حرقوا ولم يشفع له علمه ، ذلك العلم الذي شب في جسد نبت من حرام وسحت.. ومن قتل يقتل لو بعد حين ، فقد قتل تلك الفتاة البريئة التي أستقدمها واستدرجها في نفس المكان الذي قضى فيه نحبه ، فإن الله يمهل ولايهمل ، لله في شئونه أمور، هو الثابت فقط على تلك البسيطة ، هو مسيرها وبقدر فليعلم أولو الألباب .

تمت

هريدي الصعيدي

مقدمة

قصص الهجرة من جنوب مصر للشمال كانت في تلك الفترة كثيرة ومتعاقبة وكانت شبه يومية لأعداد كبيرة جداً، ولأسباب كثيرة منها ضيق العيش في ذلك الوادي الضيق كثير الابتلاء سواء كان من نهر النيل في كلتا حالتيه؛ شح مائه وما يسببه من قحط تجف منه الزروع والضروع، أو فيضانه العاتي الذي يجرف معه كل شيء في طريقه دون رحمة أو هوادة، وتكون محصلة الحالتين واحدة، يتنج عنه ضيق في أسباب العيش والرزق، كما أن هناك ما يجعل الهجرة واردة ، هي الهروب والخوف من الثأر تلك الآفة النارية التي حصدت الكثير من أساطين رجال العائلات، التي لم تقم للعائلة شأن بعد أن حصدتهم نار الثأر فكانت الهجرة والتخفي ما هما إلا تأجيل لذلك الحصاد والقليل القليل ما فلح ، ولم يفلح أحد تقريباً لقلة الأعداد في مصر وقتها بسبب الأوبئة التي كانت تضرب العالم بصفة عامة ومصر بصفة خاصة مثل الكوليرا والطاعون، وبعض الأمراض الأخرى مثل السل والتيفود والأمراض التناسلية وغيرها نظراً لعدم قدرة الطب الوقائي أيامها على التغلب على أثر تلك الأمراض وغيرها المنتشر في تلك الحقبة الزمنية، كما أن العالم قد نفض يده من حرب عالمية، هي الحرب العالمية الأولى والتي كان نصيب مصر من قتلى تجاوز المليون من خيرة شبابها ورجالها، تم

سوقهم في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، كما كانت هناك أسباب أخرى فردية للهجرة منها اتباع غازية ، من غوازي الغجر الذين كانوا يفدون للقرى والنجوع لأسباب عديدة منها احتفالات موسمية أو مناسبات دينية وموالد لمشايخ أو خلافه مما يكون تواجدهم الموسمي ذلك مصدر دخل لهؤلاء الغجر والغواني ، فكم من لب شغل بإحداهن ، وكان أهله يفسرون غيابه بقصة خرافية اخترعوها من خيالهم ولكنها تبعد عنهم شر المعرة والنقيصة ألا وهي قصة النداهة، تلك القصة الخرافية وهي عن صوت شابة كانت تنادي على الرجل وهو سائر على شط النيل أو الترعة في الفجر ، يطلقون عليها "النداهة" ، فيتبعها وتأخذه إلى عالمها السفلي ، ولا يظهر مرة أخرى ، وهو في الغالب ، يكون قد هجّ في الفجر وشاهده الناس وقتها رأية العين وسرعان ما ركب أي وسيلة لتنقله إلى الشمال ، هربا كما قلنا حيث الغوازي والغواني ، أو هربا من الثأر، أو لأى سبب آخر لايعلمه إلا الله ، ويختفي بعدها ومنعاً للعار الذي كان يمكن أن يلحق بأهله ، ولم تقتصر تلك الأحداث على الرجال فقط بل وعلى نساء أيضاً هججن وتركن آهليهن وبلدهن ، لأسباب عديدة ، أو ربما تم قتلهن وإخفاء جثثهن تماماً للتخلص من عار تسببن فيه ، وكان يتم تداول قصة النداهة تلك حتى أصبحت كثيرة قدر الليالي الطويلة المظلمة التي تمر على الصعيد بجهله وفقره ، فأصبحت حديث السمر ، ويختلط فيه الواقع بالخيال ، وتكونت منها ملاحم كثيرة ، وأصبح لها مكانة بين الناس ،

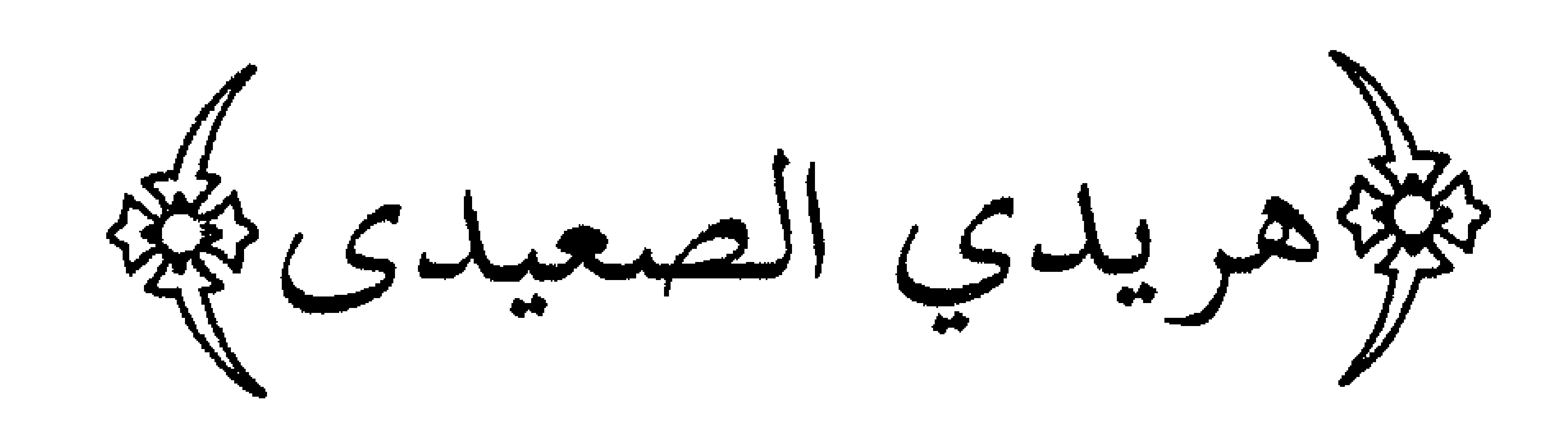
وكثيراً ما تحولت لواقع قابل الحدوث ، وهناك شواهد عـن مـن اختفوا بالفعل من الجنسين ، وتراه العائلات حلول لحجب الواقـع المرير..

كما كانت هناك هجرة أخرى لا تقل عن ذلك العـدد الـذي أسهبنا في حصره ، منها التجارة ، فكان الرجل يهـاجر أويهجـر أماكن صباه كي يصبح هو ذاته محطة وصول وارتكاز بالشـمال للبضاعة الواردة من الصعيد ، ومن يأتي بها ، فيعلم كل أخبار بلده منهم ، و نجم عن تلك الإرتكازات تشكيل كيانات متماسكة بين الأصل وبين المهجر لا ينفصم عراه ، كثير منهم حقـق نجاحـات وصلت بهم لأعلى المراتب.

ومن تلك التغريبات كما قيل عنها ، تغريبة طالبي العلم ، والعلم المتوافر آنذاك هو التعليم الأزهري ، فقط لاغير ، ويبدأ في الكتاتيب المنتشرة في القرى والنجوع وبعض المعاهـد في المـدن الكـبيرة ، وينتهي في أروقة الأزهر الشريف ، وكان استكماله على هذا النحو ترف ، لا يقدر عليه إلا القادرين لمجابهة تلك السـفريات وتـوفير الإقامة سواء في المعاهد أو ما بعدها .

كان ذلك الشرح تقدمة للهجرة التي تحدث في إتجاه واحد فقد دائماً من الجنوب للشمال ، ترى إي نوع من تلـك التغريبـات تعرض لها بطل قصتنا هريدي الصعيدي ، وما نوع النداهـة الـتي

جعلته يفر من الجنوب ، من قرية تقع على الجانب الغربي من النيل ، تتبع أحد مراكز التنوير ، وتشتهر بالعلم وحفـــظ أهلـــها للقـــرآن وعلومه وترتيله ، وهي ضمن مراكزمحافظة ســـوهاج ، فنســـمع حكايته منه هو ، وكان يحكي ذلك إلى المعلمة نجية صاحبة وكالـــة الضابط برملة بولاق ، بعدما تعرف على قصتها التي روتها هي له ، وسعيها وراء اليهودي يوسف الشامي الذي وشى بزوجها وأدخله السجن بعد أن خزن بضاعة ممنوعة بالجزء المخصص لزوجها السيد بلك العيسلي ، وقد حكت له ذلك لتدرء عن نفسها أمامـــه شـــبه العلاقة الأثمة مع ذلك الرجل زير النساء ، الـــذي كـــان يحـــاول بشهامته منعها من الإقتراب منه خوفاً عليها ومـــن ألاعيبـــه الـــتي يمارسها يوسف مع النساء اللاتي يأتين في طلبه كل ليلة ، ولما علـــم كامل قصتها التي روتها أطمئن لها و وعدها بمساعدتها لإنفـــاذ مـــا انتوت فعله ليس تعاطفاً معها فحسب بل إنتقاماً من ذلك الرجـــل اليهودي والذي تتبرئ اليهودية كديانة منه فماذا قال:-



هريدي الصعيدى

كنت من عائلة ميسورة الحال ، لدينا بيتاً وحقـلاً نحوزهمـا ولا نملكهما كحال المصريين ، فإن معظم الآراضي كان لها مالك مـن ضمن الأغاوات الذين أقطعهم الوالي أو الخديو أو من يملـك أمـر ذلك ، كما أن كان لدينا زريبة مواشي بها من الدواب ما يعيننـا على الزرع ويفي بالخير ما يحمله من ضرع يفـي ، ومـا نبـذره ونحصده من زرع يكفي ، وما نؤمن به يشفي ، نعـيش في سـتر أقرب للرغد ، بيتنا بعيد عن خطوب النيل ، تصلنا ماؤه بنعمـة لا نقمة ، فإن قل جاءنا من تحت الأرض ببئر جوفي ، وإن زاد فـلا تصل لنا منه إلا ما يكفي ، كان دارنا مأوى في الخطوب ، نعـين المحاتج دون منّ أو لغوب ، من أجانا أجرناه ،ومن جاورنا بمعروف جاورناه ، لم يكن لعائلتنا ذرية كثيرة ، ولكن بفعل الخير لم تكـن كسيرة ، حتى آتنا ما آتنا ، أخذ ما كانا أمامنا ووراءنا ، ضـرب البلاد الوبا ، ذلك المرض الأسود المسمى طاعون ، طاح في عمُـار البلاد ، وأشعل في أعمارهم بالحصاد ، وذلك أمـر رب العبـاد ، أصيب به عائلنا الكبير ، وكان حصاده فينا أيضاً كبير ، فرغم قلتنا في العدد ، إلا أنه فينا حصد ، ولم يسلم الشيخ ولا البنت والولد ، وعلى فراش المرض و أبي في الإحتضار وصاني بأخي الصغير وكان اسمه عبد الستار ، هكذا كان يحكي هريدي قصته للمعلمة وكأنـه يحكي لها ملحمة ، واستكمل هريدي قوله بعد أن مسح دمـوع تساقطت من عينيه ، لم ينجو من تلك المحنة إلا أنا وعبـد السـتار

أخي الصغير والذي كا قد أنهى حفظ القرآن في الكُتاب ومعهد مركز المنشاة القريب لقريتنا وقد أوصني أبي ، أن مات كل أفراد الأسرة كما حدث للأسر المجاورة لنا ، ولو كان هناك بقية عمر لي ولعبد الستار ، فلنبع كل شئ من دار ومدرار وبهائم ، وكل ما نملك ونذهب للقاهرة حيث الأزهر الشريف ، ليكمل عبد الستار تعليمه ، عله يكون قارئ مشهور يخلد اسمه مع عظماء القراء ، ويخلد معه اسم العائلة ، فنتغلب على قلة ذريتنا التي كانت تؤرق أبي وأبيه من قبله ، وكان عبد الستار رغم حداثة سنه جميل الصوت عالي النبرة ، طويل النفس ، وذد على ذلك إجادته للخطابة منذ نعومة أظافره مقلداً أو البندر أو المركز أو مدينة سوهاج نفسه ، وكانت لديه القدرة على حفظ ما يسمعه ، وطريقة سماعه لها ، حتى كانت ليالي السمر لا تخلو من عبد الستار لسماعه وهو يقلد حتى المنشدين ، وهذا هو السر الذي جعل الوالد يوصيني باستكمال تعليم عبد الستار ، لأنه كان ينوي أن يفعل ذلك أمره فيه ، وشدد الوالد عليّ في طلبه ، حتى كاد أن يلقي ربه دون الشهادة التي ذكرته بها بعد قسمي له بالله أن أفعل ، ولن أقصر ولو أستدعى ذلك أن أفني عمري من أجل طلبه ذلك هنا هدأ أبي ونطق بالشهادتين ، واسلمت الروح لربها وأسترد وديعته في كل أفراد العائلة و لم يبقى منه إلا أنا وأخي عبد الستار ، وعندما كشف الله الغمة والبلاء ، وعادت الأمور لوضعها الطبيعي ، بعد أن قلت أعداد البشر بشكل لا يصدقه عقل ، عاش من عاش ، وزوجوا حتى

الأطفال وهم على وشك الدخول في سن الحلم ، كي يتكاثر البشر علهم يعوضوا من ماتوا ، وكم من ديار كانت مغلقة على من فيها ، لم يسلم منها حتى الدواب لعدم وجود من يسقيها أو يقدم لها العليق ، وكم من أهالي فكوا قيد ما لديهم من دواب وأنعام ، وتركوها تسعى في أرض الله خوفاً من أن تهلك تلك الأرواح بحبسهم ، لأجل من فعل ذلك ، فكان كل شئ وفير بشكل لم يسبب أي مشكلة للموجودين ، هذا الأمر صعّب الأمر على هريدي كي ينفذ عملية البيع ، لقلة المال نفسه لقلة الناس وزيادة الموجود (أقتصادياً يسمى بالتضخم) ، ولم يتمكن هريدي إلا من تدبير مبلغاً من المال غير يسير من بيعه فرساً أصيلاً كان لوالده وكذلك حمار وأتان وجحش صغير باعهما في البندر المجاور له يوم سوقه المعلوم وعاد ، ليغلق داره ، وأعطى ما بقى من بهائم لجار له أمنه عليها وعلى أرضه على أن يزرع ما يزرع ، ولكن من أين يأتي الجار بالعدد المطلوب لإتمام الزراعة والحصاد ، المهم أنه أستودعها الله عند جاره حتى تنصلح الأحوال وسيعود يوماً لتصريف الأمور ، في وقتها بمشية الله ، ركبا هريدي ومعه أخيه عبد الستار أو قافلة مراكب شراعية ، متجهة للشمال وحملا ما حملا من زاد ، وتركا ما تركا من ذكريات .

أيام كثيرة مرت ، لا حديث للناس إلا عن ما أصاب البلاد والعباد ، وتذكر ما كان قبل الوباء والأحلام والأماني التي لم تتحقق

، ما حدث من أحداث أثناء الوباء وما حصد ومن حصد وكيف كان الحصاد ، حتى صرخ في الناس من يطلب منهم الكف عن ذلك الحديث ، بكل ما به وما فيه ، وليتذكروا الله ، وكلام الله ألا وهو القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة من نثر أو شعر أو خطب ، ولم يجدوا أحسن من عبد الستار الصغير ، وما لديه من ملكات ليتحلقوا حوله ، فرغم عدم فهمه الكامل لمعاني القرآن ، وإن كان حافظ المعاني ولكن لحداثة سنه كان لم يفهمها بعد ، وكذلك الأحاديث القدسية والنبوية ، حتى ما قيل في الشعر من غزل ومدح وهجاء ، كما أن طريقة إلقائه للخطب لمشاهير الأئمة منهم من قضى نحبه ، ومنهم من عفاه الله منها ، وما كان بها من طرفة بعض الشئ كما أن طريقة حفظه وإلقائه حتى بحركتهم العفوية أضفت للجو الحزين تلك بسمة أذهبت قيظ حر لا الفر فحسب بل حر نار الفراق أيضاً ، فمن الركاب من مات أبيه أو أخيه أو ابنه أو أمه أو بنته أو أخته ، وكثيراً منهم كان حاله حال هريدي وعبد الستار فقدوا كل زويهم لم يبقى منهم إلا الذكريات والوصايا ، والكل يسعى في تنفيذها كما قيلت لهم ، فقد كان وقت الإحتضار طويل .

وصلت القافلة لبولاق ذلك الميناء النهري الكبير ، ذلك الميناء الذي يعد حلقة الوصل بين الجنوب من منابع النيل فيما فوق السودان ، وشمالاً حتى مصبات النيل في رشيد ودمياط ، وها هي

ترعة المحمودية تلك الترعة التي أوصلت البضاعة لميناء الأسـكندرية على ساحل البحر ففتحت ممر لوصول البضاعة من وإلى أوربـا ، فكان الأمر لميناء بولاق النهري شأن كبير جعـل تلـك المنطقـة تتضاهي كبريات المناطق المفصلية في كل بقاع العالم .

كانت هذه أول مرة تتطأ قدم هريدي القاهرة ، وكذلك أخيه ، ولكنه سمع عنها الكثير والكثير ، وعلم خباياها وما يدور فيها ، من الحكايات التي كانت تروى من أصحابه والتجار الـذين أرتـادوا القاهرة بحكم تجارهم ، وما كان يحدث من بعض حسني النية مـن أهل الصعيد وما أغرب من المشاكل التي وقعوا فيها ، حتى أصبحت في مجال السخرية والنكات ، ورغم قلتها إلا أن غزارة الحدث هـو ما جعل منها حدث ، يستحق الحكي والسرد ، ويجلب الضحكات ، حتى أصبحت نكات تحكى عن ذلك الرجل "بلـدينا" ، كـان يسمع كل ذلك هريدي ، ولكن لم يوغر صدره علـى سـكان أو قاطني القاهرة ، ولكن كانت له خبرة ولو شفوية عن كيفية التعامل ، وما ساعده على ذلك طول المدة التي قضاها هو وأخيـه عبـد الستار على ذلك المركب ، وحالة التوافق التي حدثت بينه وكافـة الركاب بشكل جماعي ، نتيجة حبهم لعبد الستار لما كان يمـتعهم أثناء الرحلة بما يسمعون منه من ذكر أيات الحكيم بصوته الـرخيم الجميل وما كان يقصه من حكايات الأثر والسيرة النبويـة وسـير الأنبياء وما كان يحفظه من أشعار ، ومن ناحية أخرى ما كان يقوم

به هريدي نفسه من أفعال محتواها الهمة والمروءة والشهامة ونكران الذات طوال الرحلة ، كل ذلك جعل لهما شعبية كبيرة بين الركاب ، فتسابق الجميع بالشهامة المعروفة عن الصعايدة من تقديم الخدمات والنصائح للواردين للقاهرة أول مرة ، والكل كان يتسابق لإستضافتهما لديهم ، لحين أن يدبروا حال السكن والعمل لهريدي وإلتحاق عبد الستار بالأزهر ، وكانت الدعوات جدية يصحبها إطلاق الأقسام والأيمانات الغليظة ، حتى أطلق أحدهم قسمه بالطلاق من زوجته إن لم يصحبهما الليلة الأولى لهما بالقاهرة في ضيافته دون غيره ، أما ذلك اليمين الغليظ رضخ الجميع ، وقضى هريدي وعبد الستار لدي مضيفهما هذا ثلاث ليالي متصلة في بيته والذي كان متاخم لمنطقة ميناء بولاق ، وفي تلك الليالي الثلاث أنجز هريدي موضوع إلحاق عبد الستار بالأزهر ، كما دبر سكن لهما بمنطقة العتبة الخضراء ، من ناحية شارع محمد على أقرب لميدان العتبة ، لتسهيل تنقل عبد الستار من وإلى الجامع الأزهر ، بعد الإنتهاء من دروس اليوم ، وقد دبر له أحد الذين كانوا المتواجدين معه بالمركب عمل ، وتجارة. ستطاع من خلال ما كان يحمله من مال معه من ريع ما استطاع بيعه من متاع الورث أن يحمله معه ، واستمر الحال وعاش الأخوين أيام جميلة كلاهما في ما يهمه ، عبد الستار في دراسته يجيد وينجح في علمه وهريدي في تجارته يكد ويجني مكاسبه. ومرت السنة الأولى راضيين مرضيين ، بينهم الحب و لم يدخل بيتهم الشيطان ، وكان هريدي حريص كل

الحرص على سلامة ومشاعر عبد الستار ، فكان ينظف ملابسه ويغسلها ويكويها بيده وطلب من أحد الحدادين صنع مكواة مخصصة لكي الملابس للحفاظ على هندام عبد الستار ، وكان يطهو له الطعام الذي يحبه بيده ، حتى فراشه كان يحرص على تهويته وعرضه للشمس للحفاظ على صحة عبد الستار فهذا ليس أخٌ فقط بل هو وصية الوالدين ، كما أن نفس وتكوين عبد الستار يجعل من يقترب منه يحبه وكأن الله وضع فيه من لديه محبة ، كان له قبولاً وحضوراً ، وكان بالفعل عبد الستارفخراً لهريدي كما كان هريدي سنداً لعبد الستار ، ومن شدة حرص هريدي عليه ، لم يفكر بالزواج حتى لا يأتي من قد تتدخل بينهما أو تسبب أي خلل في حياة عبد الستار ، فآثر عدم الزواج في تلك الفترة ، مرت السنين الخاصة بتعليم عبد الستار ولم يفتر جهد هريدي مع أخيه ، وإن ظهرت بوادر تغير في طريقة حياته ، وكان يعول ذلك على الجهد الذي يبذله خلال يومه ، ولما كان يطالبه عبد الستار ليبحث عن زوجة لتخفف عنه أعباء البيت على أقل التقدير ، فكان الرد بالرفض والرفض القاطع ، حتى يطمئن قلبه كاملاً عليه وحتى تمام تنفيذ وصية والديه ، فيرتاحا في قبريهما على غبد الستار فيكون بر بوعده لهما ، فيكتمل الرضا عليه ، كما أن في تلك الفترة سافر هريدي أكثر من مرة عائداً لبلدته وخاصة لجلب بضاعة من البلدان قبلها وبعضها ، ومر على بلدته ، وباع ما تبقى من أملاكهما فيها من أرض ولكنه احتفظ بالبيت وما به من متاع ليظل دافع له

للرجوع للوطن الصغير في رحلة عودة تسمى باللهجة "التــرويح" فمهما يسكن الصعيدي في المدن يأتي له وقت يحن للأصل فيقــول "أنا مّروح".

لذلك أبقى هريدي على البيت وكأنه اختزل الــوطن في هــذا السكن رغم بداءته .

تسلم عبد الستار مهام عمله الجديد بعد أن أنهى كامل تعليمه وزاد ما زاد من تخصص ، رفع من قدره وكما قلنا القبول الــذي حباه الله به ، فذاع صيته واشتهر وأصبح مطلوباً لدى الخاصة قبــل العامة وفتحت له كل الأبواب ، وكان الإنفصــال الأول بينــهم ، طلب عبد الستار من هريدي نقل السكن لسكن يليــق بوضــعه الجديد ودخله الثابت الذي مع أيام يزيد ، كما أن أصبح له زائــر ومريد ، وإرتباط عبد الستار بالمكان ، وقربه من مواقع تجارتــه ، وكذلك ما أستجد عليه من أفة الكيف الذي إنقاد لها إقتيادا ، من صحبة السوء وطوال السفر ودعة العيش الذي توافرت له ، جعلته يمن ذلك المخدر الذي كان منتشراً وقتها في كافة أوساط وأطياف الشعب المصري فقيره وغنيه ، وكان للإ ستعمار الإنجليزي دخلاً في نشر تلك الأفة وهي إدمان المخدرات بكامل أنواعها مــن أفيــون وحشيش وهروين وكوكايين أيضاً وكان أثر ذلــك واضــح في المستعمرات الإنجليزية بصفة عامة والهند ومصر بصــفة خاصــة ،

عكس المستعمرات الفرنسية أو غيرها لم يكن منتشر فيها المخدرات بذلك الشكل ، ولكل مستعمر في شأنه أمر ، فكان ذلك آفة مـــن آفات الأستعمار الذي عانى منها الكثير من أفراد الشعب وخاصـــة الغير المتعلمين ، ومن أين كان التعليم يأتي للمصريين البسطاء سوى في الأزهر ، لكن التعليم الأزهري رغم قلة مصاريفه ، فقد كـــان يحتاج أشخاص لديهم ملكات خاصة تبدأ من الطفولة في الكتاتيب التي كانت منتشرة كما قلنا في كل أنحاء القرى والنجوع ، ليست بصفة منظمة بل كانت بصفة فردية وكانت بمعـــنى ســـبوبة رزق للشيخ أو مدعى التشيُّخ في بعض الأحيان ، ومن تمسك بما حفظـــه وزاد عليه ، إنتقل لمرحلة أعلى ومن أكتفى ، أكتفى علمه بما لديه ، أما العلم الدنيوي فقد كان لايقدر عليه سوى الأغنياء ، وبعضاً من الطبقة الوسطى التي تحاول أن تلحق بركب الحياة الآمنة الكريمـــة ، أوعلى الأقل حياة مستورة ، وبذلك كان التعليم رفاهية لايقـــدر عليها إلا الأغنياء ، أو أولي العزم من عامة الشعب مثل شيخنا عبد الستار ، ولذلك كان غالبية الشعب المصري ليس فقط أميـــاً بـــل جاهلاً ، وزد عليه الإدمان في غالبيته موخاصة الرجال والشباب ، فيكون شعباً مغيباً تماماً ، حتى لايشكل عبأً على الأستعمار، فـــلا يطالب باستقلاله أو حقوقه التي تنهب على أقل التقدير في المطالب ، وكان هريدي من تلك النوعية التي جرفها ذلك التيار ، كمـــا أن هناك من كان ينفخ في نار الإدمان من بعيد دون أن يراه أحد البتة ، ألا وهم شرازم اليهود الحاقدين التي تملأهم نار الغل والحقد لكل

من هم ليسوا يهود ، وتدفعهم رياح الصهيونية نحو هدف إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بعد وعد بلفور المشؤم ، أصبح لديهم ما يفعلونه بحجة العودة لأرض الميعاد التي كتب عليهم فيها ومنها الشتات جزاءاً وفاقاً لما فعلوه مع أنبياء الرب ، فهل رضى عنهم الرب حتى يعودوا ، وكيف لهم العود ، وماذا هم فاعلون في الشعب الموجود بالفعل بتلك الأرض ، هؤلاء الذين كانوا موجودين قبل من وجودهم أصلاً ، فهل نسوا قولهم لله عندما أمرهم بالدخول ، فماذا قال لهم فلنقرأ القرآن في سورة البقرة عندما أمرهم الله بدخول تلك البلاد "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا بالباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وستريد المحسنين *فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون" ، فقد أمرهم الله أن يدخلوها مساكين غير غازين أو مغتصبين ، لكنهم لم يدخلوها وقت أن أمرهم الله بالطريقة التي أمرهم الله بل أرادوا الغصب ، غصب عن إرادة الله جل في علاه ، فكتب عليهم التشتات ،ورغم دخولهم إياه بأمر الله بعد أن قتل داوود جالوت ، وبعد أن ذاقوا جمال الدين والمُلك ، وكانت لهم أيام الله الجميلة ،إلا أهم كطبيعتهم وطبيعو بوصلة حياتهم للإنحراف ، ففي عصر موسى النبي الكليم ، ولمجرد غيابه عنهم أربعين ليلة عاد ليجدهم يعبدون العجل ، فانحرفت بوصلتهم أيضاً بعد ملك سليمان ليكتب عليهم الشتا ت مرة آخرى، والمتدينين منهم يعلمو

أهم في هذا الشتا إلى يوم الدين ، ومن عقيدتهم الحقة السوية أهم لن يدخلوا تلك البقعة إلا زائرين أو حجاج ، وها هم العلمانيين منهم ، يستغلوا الأوضاع العالمية التي حكمتها المادة وحكموا هؤلاء اليهود العلمانين المادة نفسها وجعلوها مطيتهم ، ليحققوا أهدافهم لا دينية بعد أن ألبسوها ثوب الدين لتكون لهم زريعة وحجة قوية ، فقد طلبوا أن يكون لهم وطن قومي في بادئ الأمر في البلدان الجديدة ، وطرحت الأرجنتين في أمريكا الجنوبية ، ثم طرحت الكونغو في أفريقيا ،كل ذلك كان هروباً بل و تأكيداً لعدم أتفاق الشرع مع العودة لفلسطين، ولكن أخيراً التقت رغبة الشر مع رغبة الطمع في أن تكون فلسطين هي الوطن القومي لليهود وأسموها أرض "الميعاد" ، وصدر لهم وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا لهم بها ، وكما قيل "من لايملك لمن لا يستحق" فكان ذلك الأمرلأوروبا هدفاً سياسياً استراجياً بعيد المدى لتكون أسرائيل ، الشوكة في ظهر الشرق الأوسط الذي كان به من الخيرات التي كانت تنهبها علناً الدول الإستعمارية ،كما بدأت تظهر فيه بغزارة منابع الذهب الأسود ذلك السحر الجديد الذي سيحكم العالم الذي دخل بكل قوته لعالم الصناعة والبديل عن الفحم الذي بدأت مناجمه تخبو ، كما أن أثره الصحي قاتل عكس البترول الذي يمكن أن تفصل مكوناته بطرق آمنة ومربحة أيضاً ، أما من ناحية اليهود فكان الأمر سوياً لهم بدعوى أنها أرض الميعاد وفيها مملكة داوود وسليمان وهيكل الرب الذي بناه سليمان ، فلنعد لها من الشتات ،

ولتكن اسرائيل البيت الكبير مملكة الرب لشعبه المختار، ولو على أشلاء شعباً مسالماً على تلك الأرض ، لعلمهم التام أن أهل تلك الأرض جبارين ، كما عاهدوهم من قبل ، وكذلك لعدم وجود دوافع لحجتهم الواهية أمام باقي الدول ، وكذلك عدم وجود الأعداد الكبيرة التي يحتاجونها لحشد حرب قد تكون ضروس مع العرب ، فيجب أن تكون خطة دخولهم لتلك الأراضي مدروسة تماماً مستغليين إنشغال العرب في جهلهم وفقرهم وإذلالهم ونهب مواردهم عن طريق الأستعمار ، فكان لهم دوراً كبيراً في نشر المخدرات لما لها من فائدتين وليس فائدة واحدة ، الأولى ضرب وعي المواطن وبالتالي الوطن بأكمله وجعله في غيبوبة الإدمان ليكون بعيداً عن الواقه وما يدور حوله ، وثاني الأمر هي الربحية العالية التي ستجنى من جلب المخدرات ، فكانوا عامل مشترك أعلى في جلبه فقط لا توزيعه على الإطلاق حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون ، وكانوا يسهلون ويجندون من يريد العمل في هذا المجال دون أن يظهروا في الصورة على الإطلاق ، من هنا كان أمر إنتشار المخدرات بكل أنواعها في تلك الفترة وأنتشار إدمانها بين كل طبقات الشعب المصري من عامة وخاصة ومثقفين وحتى الفنانين والمبدعين من أمثال فنان الشعب السيد درويش كما قيل .

أطلت عليك عزيز القارئ في إظهار تلك الأفة وسببها وأثرها ، ولكن وددت أن أضع أمامك مشكلة بطل قصتنا وهو هريدي

الصعيدي ، ولنعود له مرة آخرى ، فرغم النماء الذي يحدث له في تجارته ، وسطوع نجمه بين أواسط التجار ، في نفس الوقت الذي يبذل كل غالي ونفيس من أجل أخيه عبد الستار وتعليمه ، وبزوغ نجمه في عالم الأزهر الشريف ، وخاصة في القرآن وعلومه وقرآته ، وتهافت الكل لسماع تلاواته وشروح قرآته ، ففتحت له كل الأبواب الموصودة ، وجعل الكثير من العلماء والأعيان لا يتسنكفون من خطبته علناً ، الكل يرده أبنته ، ومن أعظم من زوج حافظ للقرآن وعالم من علومه ، وقد كان فقد ظفر به أحد أجل العلماء من الأزهر لإبنته التي مال إليها قلب عبد الستار ، عندما كانت ، تقدم له واجبات الضيافة في بيت الشيخ الجليل ، فراقت له من حسن وعلم ونسب ، وهاهي ربيبة بيت من بيوت الله ، فهي إذن ذات دين ، فلتربت يد عبد الستار بها ، وما إن ألمح لوالدها بالخطبة ، حتى قام ساجداً لله شاكراً استجابة دعائه لإبنته ، ورغم ما لدى ذلك الشيخ من جاه وعزة وريع آراضي وراثة عن أهله السابقين ، وما له من وظيفة في مشيخة الأزهر نفسه ، وما يرد إليه من ريع من كتب في المجال الديني ، ويجعل الكثير منها نفحة لطلاب الأزهر الغير قادرين ، ورغم ما طلبه من عبد الستار في ألا يرهق نفسه بمصاريف الزواج والشوار والسكن وخالفه ، لعلمه بكامل حاله كما شرحه له عبد الستار نفسه ، إلا أن هريدي أبي على أخيه أن يتزوج هكذا ، فهو صعيدي حر لايقبل لأخيه ذلك على الإطلاق ، ولأول مرة كاد الأمر بينهم أن يحتد ، فرضخ عبد الستار

لشروط أخيه في قبول تلك الزيجة على أن يكون نداً لصهره مهما كلفه الأمر "حتى ولو باع خلقاته" كما قال هريدي لأخيه ، وراح يذكره بما أوصاه به والديه في احتضارهما بشأن عبد الستار ، فليفرحا ويستريحا في قبرهما ، فقد كبر عبد الستار وأصبح كما كان يريدان وها هو سيكمل نصف دينه من ابنة شيخ من كبار علماء الأزهر وعين من أعيان البلاد ، وبالفعل جهز لهما هريدي كل شئ عل أحسن ما يكون من شقة بجوار بيت أبيها بها مضيفة وحجرة مسافرين ، وفرشها بكل ماهو جديد من محلات القاهرة ، وحتى الملابس لكل منهما ،كما أنه أقام لهما حفل شمل الدين والدنيا ، حضره الجميع من الأعيان والمشايخ ، وكذلك التجار والسمار ، كل نوع من المدعويين أخذ نصيبه الذي أختاره وأرتاه ،ولم ينسى هريدي بالطبع المجموعة التي كانت معه على المركب التي أقلته هو وعبد الستار الطفل من الصعيد حتى القاهرة .

لم يكن رضى عبد الستار عن أخيه مكتملاً ، رغم كل ما فعله هريدي له ، ليس نكراناً منه عن ما فعله ، ولكن كان لأسباب عديدة ، منها علم عبد الستار ما يملكه هريدي تقريباً ومعرفته أن ما صرفه عليه يفوق قدرته ، وهو ليس في حاجة ليكون الأمر على هذا النحو ، فلا وجوب للندية في هذا الأمر على الإطلاق ، فصهره رغم غناه لايهمه ذلك الترف والتبذير الذي لام بالفعل عبد الستار عليه ، ولكنه أفهمه أنها رغبة أخيه وحاول إثناؤه عن ذلك لكنه

رفض تماماً ، كما أن عبدالستار يعلم أن أمر التجارة رغم إتساعها مع هريدي ، إلا أنها لها أحوال لا يستهان بأمرها وخاصة أنه علم أن هريدي يلجأ للربا عن طريق بعضاً من اليهود ، وهذا محرماً شرعاً وكان يرد عليه هريدي بأنها التجارة يا أخي الأزهري ، من اضطر غير باغٍ أو عادٍ لا أثم عليه ، ورغم ما كان يحدث بينهم من مشاحنات في هذا الأمر ، وأفهامه أن غير مضطر لذلك ، فالقليل يكفينا وخاصة بعد أن فتح الله على عبد الستار من دخل إلا أن هريدي لم يقبل منه أن يصرف مليم واحد على البيت على الإطلاق ، بل كان يأخذ ما يقبضه عبد الستار ويدعه في بنك طلعت باشا حرب ، بعد أن أفهمه عبد الستار أن هذا البنك للوطن ولا أثم على من يساهم فيه ، فكان يدخر النقود باسم عبد الستار في هذا البنك وكان عبد الستار يخرج مازد من الفوائد لوجه الله ، وأمام ما فعله وصرفه في ليالى الإحتفال بزفافه وقبلها تكليف اشقة والفرش والأثاث ، علم عبد الستار مااستدان به أخيه وارهق نفسه بديون لا يعلم أمرها إلا الله وكيف له من سداد تلك الديون مع هؤلاء المرابين الأشرار من اليهود، وكدّر ذلك عبد الستار كل الكدر ، كون أن ذلك الفرش الوثير الذي ينام عليه جاءه أخيه بالربا ، والله نهى عنه لطرفيه ، ما ليكن الأمر حتمياً ، وبالفعل لم يكن حتمياً سوى المظهرية والندية الكاذبة الغير الحقيقية، التي لن تفيده أوتضره هو بل ضّرت أخيه ، ولكنه قرر أن يرد تكاليف الفرش والشقة لأخيه وبعضاً من تكاليف ليالي الزفاف ، ولكن دون سداد ما شابها

من بعض المعاصي أثناء ذلك الإحتفال في الخفاء وليس في العلن إحتشاماً لما كان من المدعويين من صفة دينية ورسمية بعض الشيء ولكن الأمر لم يمنع وجود حشيش وأفيون وخمور لبعض المدعويين ، قرر ذلك عبد الستار على أنه بعد الإتنهاء من من إجازة الزفاف سيذهب لهريدي كي يذهب معه ليسحب كل مدخراته من البنك ليسدد ما استدان به ، وإن بقى شئ سيكون دين عليه له يسدده كل شهر ، ولينهي أمر الربا الذي تورط فيه ، وبالفعل مرت أيام العسل كما يقال عنها ، وكان مرسال يأتي قبل صلاة الظهر حاملاً ما لذ وطاب من طعام ،معد لدى أشهر مطاعم القاهرة ، هدية للعروسين من هريدي، وكان ذلك يزيد عبد الستار هماً وأذى ، حتى أنه كان يستحرم ذلك الأكل ، وكان في شبه صراع مع نفسه .حتى أحست بذلك زوجته ، وأحست بتغيره وفتور فرحته بها كبادئ الأمر حتى خالتها فيه الظن ، ولكنها ربيبة بيت عامر بالإيمان فقد ألقت عليه شبكة ناعمة تستوضح منه الأمر الذي غيره منذ ثاني ليلة بينهما ، وعما أنه اكتشف بها عيب أو تقصير ، وعندما نفى ذلك تماماً ، سألته عن سبب شروده وعدم إحساسه بالسعادة التي كان يوصف بها حياتهما في بيتهما الجديد ، أمام ما يشبه الإحاح منه ، ذكر لها ما يدور في داخله من هواجس بشأن علمه بل ويقينه بما ورطّ به نفسه هريدي من أجله ، وأخبرها بما نوى فعله بعد إنتهاء أجازة الزفاف ، فباركت بنت الشيخ الأمر وطلبت منه أن يهون على نفسه ، فهي تعلم مدى حب كل منهما

للآخر ، وكلاً منهما يعبر عن ذلك الحب بطريقته الخاصة وحسب علمه ، فليغفر له ، وليقويه الله ليسدد خطاه مع أخيه الحبيب .

ومرت ايام الإجازة ، وعاد عبد الستار إلى عمله ، ولكنه طلب الإذن له بالانصراف المبكر ، وسمع ما سمع من تعليقات وتلميحات عن سبب التبكير بالإنصراف ، ولكنه كان يوزع الإبتسامات دون تعليق على ما يقال ، وأسرع الخطا ليصل إلى المكان الذي يقوم هريدي بممارسة تجارته فيه وهي عبارة عن وكالة من ضمن وكالات الغورية ، ولما وصل ، كان هناك ما كان يخشاه ، أنها الإجراءات التمهيدية بالجرد والحجز على محتويات المكان المخصص لهريدي بالوكالة ، وسمع ما لايرضيه أو يعجبه من تعليقات الناس وأكثرهم من كان يأكل من خير هريدي نفسه وآخر هذا الخير ما تناولوه في فرح عبد الستار نفسه ، سمع من يهمس ، حزناً على حال هريدي ، وسمع من يتهم هريدي بالمظهرية الكدابة الفارغة ، وعن مصارف فرح أخيه ، وما كان بها من بذخ بكل أنواعه ، حتى ما كان به من مخدرات ، وسمع من يشرك عبد الستار أخيه في الموضوع ، بأنه طلب من أخيه ذلك كي يكون نداً لأصهاره المحسوبين من أعيان البلد ، وغير ذلك بكثير ، وكان يمر عبد الستار من خلال هؤلاء الناس وأقوالهم تكاد تثقب قلبه قبل أذنه ، وكأنه يمرق في بحر أشواك مدببة من لذع كلماتهم وهمساتهم ، وظل في مروره حتى وصل لمأمور التفليسة ، وراح يسأله عن الدين وقيمته

طالباً فرصة لسداد ، ولم يكن أثناء حديثه يرى هريدي الذي كـــا منطوياً في أحد أركان الوكالة ، ولا يدري أحد ما كان يـــدور في خلده ، وكان في غالب الأمر تحت تأثير مخدر ما تناوله في صـــباح ذلك اليوم لعلمه بحضور مأمورية الحجز ، وفشله في تأجيل الأمر أو السداد بأي شكل من الأشكال ، فلم ينتبه لدخول عبد الســـتار ، ولا للحوار الذي دار بين عبد الستار ومأمور التفليسة ، فقد طلب عبد الستار فرصة ساعتين على الأكثر لسداد ذلك الدين بعـــد أن عرف قيمته وقد قارن بين الدين ما يملكه في البنك ، كما عرف أن ذلك الدين كان لبضاعة اشتراها هريدي ولم يسدد ثمنها رغم عدم تواجدها بالمخزن ، فكان المبلغ نظير البضاعة دون ربحية أو فوائد ، فانطلق عبد الستار للبنك لجلب المبلغ ، وأوقف المأمور عملية الحجز لحين وصول عبد الستار ، ولا يزال هريدي في مقبعه جالساً شارداً يشعل سيجارة من سيجارة ، وكأنه فاقد الوقت والوعي معاً ، كما أن عبد الستار لم يحاول الحديث معه قبل انصرافه للبنك ، ومـــا إلا ساعة وأقل من الربع عاد عبد الستار يحمل معه المبلـــغ المطلـــوب ويتسلم الكمبيالات الدائنة ، وينفض كامل الموقف ، ولم يظل أحد بالمخزن إلا عبد الستار وهريدي وذلك الرجل الذي يعمـــل مـــع هريدي منذ قدومه لتلك الوكالة والتي كان يراعى المخـــزن حـــال وجود هريدي خارج الوكالة لأي سبب من الأسباب ، وكان ذلك الرجل أكبرمن هريدي في العمر، ولم يعلم أحد عمر ذلك الرجـــل على وجه التحديد ، وكان ضمن الذين كانوا معهم في المركـــب،

وهو آخر راكب إلتحق بها ، وقد كان سائراً وحيداً على شط النيل في وقت ما بعد الغروب وقبل أن يحل الظلام ، وما إن نادى على المراكبي ، فبطّئ من سيره وجنح ناحية البر فقز ذلك الرجل العجوز قفزة شاب ينع لداخل المركب ، وسط زهول باقي الركاب وإعجاهم ، ولما سألوه عن بلدته قال أنها أرض الله وكل البلاد بلاده ، ولم يحدد، ولما سألوه عن اسمه تباطأ في الرد فصاح ، وقتها عبدالستار وكان لايزال صغيراً : أنه "سيدنا الخضر"، فضحك كل الركاب من خيال عبد الستار غير مصدقين ، ولم يعيد عليه أحد السؤال عن اسمه مرة أخرى ، ونادوه الجميع باسم "عم الخضر" ، وظل ملازماً هريدي وعبد الستار تواالهم برعايته حتى وصل هريدي ما وصل إليه من التجارة لتوافر القليل من رأس المال مع هريدي وقتها .

نعود معاً لتلك اللحظة التي وصل فيها عبد الستار لمخزن أخيه هريدي ، وما أن رأى هريدي عبد الستار أمامه ، لم ينبس هريدي بكلمة واحدة، وظل في مكانه ولاحراك إلا لنفث دخان السيجارة المتواصل ناظراً في اللا شئ ، ودار حواراً بين مأمور التفليسة وبين عبد الستار ، والذي بدأه الرجل بأن الموجود من بضاعة لا يفي بالديون الخارجية ، هي مستحقات كانت قليلة لدى اليهود المرابين ، ذادت بسبب النسب الربوية التي يفرضونها في حالة عدم السداد ، فتجاوزت أصل الدين أضعاف ، كما أن ما تاستدان به

أخيراً فاق الكل ، ولا أحد من التجار حالياً يثق في التعامل مع هريدي لمعرفة المسبقة بالديون التي عليه ، ولا صدقه في ميعاد سداد قيمة البضاعة مثلما حدث اليوم ، ولكن أمر الله ، كما أن ما يصرفه هريدي على مزاجه من مخدرات ، غير أثرها السيئ عليه وعلى تصرفه أحياناً وعلى سمعته في كل الأحايين قللت من ما كان له لدى الناس من محبة ، أنه إبتلاء من الله قوي على كلٍ منهما ، فطريقهما لم يعد واحداً ، هذا يطير بالعلم والدين لأعالي السموات ، وهذا يهبط بالإدمان لأسفل سافلين ، ولا يقدر أي منهما على جذب الآخر ، أو الألتقاء في نقطة واحدة ، سوى نقطة المحبة التي جمعتهما بالأخوة العميقة التي كانت بينهما ، وكان مصير تلك النقطة هي الأفتراق الأكيد ، وإن لم يكن السريع ، فكلٌ منهما يريد أن ينطلق لحاله ، هريدي يريد أن ينهي الحديث الذي ملّ سماعه من عبد الستار عن أثر المخدرات من ناحية الصحة وإتلاف المال ، وفوق كل ذلك معصية الله ، وعبد الستار نفسه وصل لمرحلة الملل من تكرار نفس الكلمات ، والذي كان يمنعه حياؤه من هريدي كونه الأخ الأكبر والسند ، ما فعله من أجله حتى عدم الزواج حتى الآن وغيره من مشاعر الحب والود التي تجري في عروقهما ، ولكنهما أخيراً أفترقا على النجدين ، وكلٌ منهما أهتدى لنجده وطريقه الذي اختاره ، وإن ظل عبد الستار يبحث عن ديون أخيه فيما يخص البضاعة فقط ويلتزم بسدادها ، وإن صعب عليه كيفية التفريق بين ثمن البضاعة وأين ضاعثمن تلك البضاعة ، ولكنه أبى أن

يسدد فوائد ربوية أو سلف دين لشراء المزاج من مخدرات وخلافه ، حتى أنه صرف كل ما يملك من مال بل باع الكثير من الأثاث الفاخر الذي كان هريدي جهزه به أثناء الزواج ، فقد كان ذلك تخلصاً من تلك الأثاث الذي لم يكن عبدالستار يرتاح للعيش عليه من ناحية ورداً للمبالغ التي أستدان بها أخيه كي يقلل الديون التي كانت تحاصره ، ولأنه مؤمن وكذلك أمرأته التي وهبه الله إياها صبر وصابرا ، وبل أكثر من ذلك أنه حول الكثير من كمبيالات الدين باسمه بعد أن استلم كمبيالات أخيه ، ولكن كل ذلك لم يفلح لعودة هريدي لصوابه وإقلاعه عن إدمان المخدرات التي أمتلكت جسمه وغلبت عقله ، ولكنه لم يفق إلا بعد أن فاض الكيل بعم خضر ، عندما تطاول عليه هريدي ليأخذ ثمن بيع بضاعة قديمة كانت موجودة بالمخزن جاءها الفرج وكانت على وشك البوار لعدم إقبال التجار لشراء من بضاعة هريدي بعد أن كان الجميع يتهافت على الشراء منه ، فقد جبرت تلك البضاعة ، وكان عليه سداد الجزء الخاص بثمنها لمن أبتعوها منه ، على أن يحتفظ بالربح لسداد ديون ما كان يقتات به هو هريدي ، وقد منع هريدي من استلام النقدية كي يستطيع من تسيير الأمور، على أضيق الحدود ، وكان عم الخضر في كثير من الأحوال يتدبر شراء بضاعة باسمه حتى يتم الوفاء بالإيجار المخزن عسى يعدل الله أمر هريدي فيعود لجادة الصواب ، ولكن في هذا اليوم ، ولشدة ما يعانيه هريدي من أثر حاجته الملحّة لشراء المخدر الذي يتناوله والتي

فات موعده مما سبب له ألم في كل جسده ، وخللاً في حركته ، لعلمه بعدم توافر المال ، وبمجرد أن خرج الزبون وحمل البضاعة وخرج من المخزن ، طلب هريدي من عم الخضر أعطائه النقود ،كلها أو جزء منها لشراء ما يلزمه من ذلك المخدر ، بدأ الأمر بالإستعطاف وما لبثت أن زادت اللهجة ، واشتملت على التهديد ، أمام إصرار عم الخضر على عدم إطاعة هريدي فيما يطلبه ، وطلبه خفض صوته خوفاً من الفضائح التي لحقت به وبأخيه الشيخ الورع الطيب البار ، إلا أن هريدي لم يكن يستمع لكل ما قاله عم الخضر من طنين الحاجة للمخدرات التي كان إلحاحها على جسده أكبر من صوت العقل الذي كان مغيباً بفعل تلك المخدرات ، إذاد الأمر إحتدماً ، وصل لحد أن أمسك هريدي بيد عم الخضر التي بها النقود محاولاً فتحها بالقوة لسلب ما بها إلا أن أصابع عم الخضر أبت أن تفتح وتترك ما بها ، الأمر الذي جعل هريدي يلوي بدون وعي منه كامل الزراع واليد لازالت قابضة على النقود وزاد في اللي والضغط ، ولكنه فشل في ذلك البتة ، واشتدت عليه الحالة التي تسببها الأدمان في جسد المدمن ، بين رعشة وعدم التحكم في المواد المخاطية بالفم والأنف ، والتي تتدفع للخارج بشكل مزري يستحق الشفقة ، وقد واصلت هذه الحالة من الشدة حتى سقط هريدي مغشياً عليه ، تماما لايتحرك في كامل جسده إلا نفس ضعيف واهن مملوء بحشرجة وكأنها حشرجة الموت ، وكذلك ما يندفع للخارج من سائل مخاطي من فمه وأنفه ، فقبع عم الخضر ينظف ما يخرج

من هريدي بمنديل ويغسله بالماء ويعتصره حتى يمكن له استخدامه مرة أخرى وهكذا ، ولم يفق هريدي من نوبته تلك حتى وجد نفسه على فرش ليس بوثير ولكنه نظيف تفوح منه رائحة أقرب للمسك ، وذلك على أريكة طويلة ولا ترتفع عن الأرض سوى النصف متر تقريباً أو أقل ، وكأن المكان معطراً بخور من النوع الجيد ، وإن لم يرى بجانبه أو في الحيز الموجود به أثراً لتلك المبخرة التي أفاحت ذلك البخور ، كما أن الجو به نسمة رطبة تمنع التعرق ، ووجد بجواره دورق معدني ذو شكل أسطواني متغير العروض وبه يد إنسيابية أضافت له شكلاً أوسطورياً ، كما وجد بجواره إنائين مملوئين بالعسل الأبيض المصفى ، والثاني بحبات من بلح غريب الشكل من ناحية اللون والشكل ، و بجوارهم مشنة خبز مغطاة بمنديل ناصع البياض شفاف بعض الشئ ، وكان هريدي في حالة إجهاد شديد نتيجة عدم تناوله جرعة ذلك المخدر الذي أدمنه ، فتحامل على نفسه بصعوبة ومد يده ليتناول دورق المياه ، الذي أحس بأن الماء مع برودته أن إضيف له طعم آخر وهو ماء الزهر مما جعل من طعمه أكثر من رائع ، حاول هريدي الوقوف على رجليه كي يستطلع المكان الموجود فيه ، ولكنه لم يستطع ، ومع إجهاده القوى لم يكرر المحاولة ، وقد اشتد عليه صدع فيه رأسه وأنتابت جسده رعشة لم يوقفها إلا التدثر بالغطاء الموجود حوله وكذلك الشال الصوفي الذي كان دائماً يلازمه ، فهو شال أبيه شغله له جده من صوف ماعز طري النسيج متناسق الألوان ، وظل على

هذه الحالة حتى غلبه النعاس مرة أخرى فراح في ثبات عميـــق ، لم يفق منه إلا من غزارة العرق الذي يتصبب منه، فوجد بجواره عـــم الخضر وقد أخذ يجفف العرق من جبين هريدي برفق ، ولكـــن ذاد الإجهاد على هريدي لدرجة عدم الإستطاعة للتحدث مـــع عـــم الخضر الذي حمل دورق الماء ، ليرتشف منها هريدي بعضـــاً مـــن قطراتها والكثير منها كان يتسلقط على ذقن وصدر وملابس هريدي إلا بعضاً منها الذي وصل إلى جوفه ، وعندما حاول هريدي حتى مجرد القيام من رقدته لم يستطع ، فنصحه عم الخضر بالبقاء في ذلك الوضع حتى يتمالك نفسه ، وصدرت منه بعض الكلمات التي فهم منها عم الخضر أنه يستفر عن المكان المتواجدين فيه ، فأبلغه أنهمـــا في أرض الله الواسعة ، ولا تقلق ، وعليك التحمل ما أنت فيـــه ، حتى تعبر تلك الأزمة ، وحاول عم الخضر وضع تمرة مـــن تلـــك التمرات الطيبة التي كانت موجودة في الإناء ، ولكن هريدي كـــان يرفض ، ولكن مع إصرار عم الخضر تناول نصف التمرة التي ذابت في جوفه دون مضغ الذي كان يخشاه هريدي لعدم قدرتـــه علـــى المضغ ، فناوله النصف الآخر من التمرة ، وأتبعه بتمرتين أخـــريتين ،ليكون مجموع ما تناوله ثلاث ، وأتبع عم الخضر ذلـــك بلقيمـــة مغموسة بذلك العسل المصفى ، فتناولها هريدي من يد عم الخضـــر كما يتناول الطفل الطعام من يد أمه ، ثم سقاه بعضاً من ذلك الماء ، وطفق يجفف له العرق الذي كان لا يزال ينضح من وجه هريدي بغزارة ، واستسلم هريدي لأمر وإن عاودته الرعشة أياها ، وقـــد

حاول القيام من مرقده إلا أن جسده لم يقوى على ذلـــك الأمـــر الذي جعله يستسلم لرقدته وما يفعله به عم الخضر ، وقد بدأ يهدأ قليلاً جسد هريدي من تلك الكلمات التي يتمتم بها عـــم الخضـــر والتي لم يفهمها هريدي فهي ليست بقرآن كالذي يســـمعه ، ولا هي أحاديث نبوية ولا قدسية ، ولكنها كلمات من وقعهـــا عليـــه يشعر بقدسيتها ، بفهم منها الكثير من اسماء الله الحسنى والصلوات على أنبياء مرسلين سمع عن بعضهم ولم يسمع عن الباقي ، كما أنه سمع باسماء يدعو بها عم الخضر الله لم يسمعها من قبل وليست مـــن التسع وتسعون اسم الذين نعرفهم ، ولضعفه لم يقوى على السؤال عما يقوله الخضر من تمتمات ، وفي نهاية الأمر غلبه النعاس ، فنام ، ولم يفق إلا على نوبة سعال شديدة إنتابته ، اهتز له جسده بشـــدة جعلته يقوم من رقدته ، يدلّي برجليه من على تلك الأريكة فتلمس قدمه الأرض لأول مرة منذ أن جاء لذلك المكان والذي لا يـــدري متى جاء ، وكيف جاء ، ومع شدة السعال المتواصل ،كان جسده يهتز بقوة ، ويصحبها ألم في كل أنحاء جسده ، ومالبث أن انتابتـــه نوبة قئ ، وتلقائيا قام واقفاً على رجليه متجهاً لجانب بعيـــد عـــن الفرش ، وراح يفرغ ما في جوفه من طعام وأشياء أخرى لم يتذكر هريدي متى تناولها ، ولكنه أستمر في القيئ ، حتى سقط مغشـــياً عليه بجوار ما أفرغه ، وراح في إغماءة ، لم يعلم متى أفاق منـــها ، فقد وجد نفسه – عندما أفاق – أنه على فرشته تلك ولا أثر على الإطلاق لِمَ حدث ولا أثر للقيئ ، كما أن ملابسه نظيفـــة تمامـــاً،

ولكنه وجد نفسه في حال يمكنه على الأقل الوقوف لبرهات قليلة قبل أن تخور منه قواه ، ولكنه كان يشعر بالعطش الشديد فراح يعبّ من هذا الدورق الذي بجواره ، ومن حلاوة ما فيه من ماء فهو لا يرتوي ، وكأنه يحس به كما وصف حجاج بيت الله الحرام ماء زمزم ، ولكن هيهات أن يكون ذلك الماء هكذا ، وتناول هريسدي تمرة وأكلها على نصفين كما فعل معه عم الخضر ، إلا أن نوبة من الرعشة أنتابت جسده فقام من مرقده محاولاً البحث عن مخرج من ذلك المكان ، ومع شدة ما تنتاب رعشات وقلة تركيزه الذهني راح يتخبط ويخبط في جنبات المكان دون أن يحقق مبتغاه بمعرفة أي مدخل أو مخرج لذلك المكان ، حتى سقط مغشياً عليه مرة أخرى ، ونفس الحال وجد نفسه بعد أ أفاق أنه على فرشه ، ونظر للدورق الماء فقد وجدته على سيرته الأولى ممتلئ وكأن لم يمسسه أحد ، وكذلك التمرات بنفس العدد التي كانت عليه ، وكان لايقوى حتى على الوقوف ، ولم يملك من أمره إلا أن يصرخ بكلمة ياالله بصوت خفيت ولكنه صادر بأقصى ما لديه من حنجرة ، فأذا به يسمع أزيز باب يفتح من خلفه ، ويدخل منه عم الخضر ، وكان على تلك الحالة التي كان عليها منذ قدومهما لذلك المكان من قلة الكلام واختصار الردود ، وكأنه طيف ليس إلا ، فجلس عم الخضر على الأرض بجوار هريدي ، يمسح عرقه ، ويعيد لأسماعه تلك الرقية أو الأوراد التي يتلوها ، حتى هدأ تماماً جسد هريدي فقام بإطعامه ثلاث تمرات وأتبعها بثلاث لقيمات من العسل ثم سقاه من ذلك

الماء ثم مسح بالماء على رأس وصدره حتى كادت ملابس هريـــدي والفرش إن يبتلى ، ثم عاد لما كان يتلوه ، ورغم التعب الذي ينتاب هريدي وخاصة بعد أن يتناول ذلك الطعام إلا أن ما يسمعه مـــن كلمات تجعله كما لو يستسلم لفعل مخدر ما ، فيغلبه النعاس رغـــم ما في جسده من آلام ، وما يلبث أن يفيق على نوبة السعال كتلك السابقة ويحدث له ما حدث تماماً وتكرر ذلك ثـــلاث مـــرات ، .وهريدي لا يدري المة الزمنية التي بين كل مرة عما لإذا كانت يوم أو بعض يوم أو أقل من ذلك أو أكثر ، ولكن المرة الثالثة والأخيرة التي حدثت فيها تلك النوبة كان يشعر هريدي بأن روحه تســـلب من جسده سلباً حتى أنه نطق الشهادتين كثيراً جهـــراً قـــدر مـــا استطاع وسراً عندما بدأ وعيه يخبو منه ،كما أن ما أفرغه في تلـــك المرة كان يفوق ما أفرغه من قبل في المرتين السابقتين بكثير بل كثير جداً ، حتى أنه شك في أن هناك من يضع في جوفه كل تلك الكمية التي يفرغها ، وأحس هريدي بأنه يحتضر وود أنه لو اســـتطاع أن يعود للحياة مرة أخرى ، أو أن تكتب له الحياة و لم يقضـــي نحبـــه ليعود لجادة الصواب ولا يفعل ما يغضب الله ولا يعود للمخدرات أبداً ، وكأنه في حلم من شدة ما يعانيه ، ولكنـــه أســـلم نفســـه للغيبوبته التي تعتريه ، وكالعادة أفاق ووجد بجواره عـــم الخضـــر ، يمسح بمنديله المبلل بذلك الماء على جبهة هريدي ووجه وصـــدره ورأسه ، وأفاق هريدي وقد أصبح في حال أفضل مما كان عليـــه في السابق ، ودار بينهما حوار أبلغه عم الخضر ما سمعه منه أثناء هزيانه

وقت إغماءته الأخيرة ، وما تمناه على الله من إن لــو شــفاه و لم يقبضه ، فإنه لن يعود للمخدرات مرة أخرى ، فأكد ذلك هريدي ، والذي كان يتحدث به كأنه في حلم ، فكيف سمعه عم الخضر ، فلم يعقب عم الخضر على ذلك ، ولكنه طلب منه أن يردد ما يقوله ، فقال :-

قل ، تبت إلى الله ، ورجعت عما فعلت ، وأعاهد الله على ألا أعود لفعل ذلك مرة أخرى ، اللهم إني عبدك لا عزم لي ، بل القوة لك ، لا حول لي بل الحول كله بيديك ، لا أقدر والقدرة منك ، بــك ، نقّ بدني من المعاصي وما دخل فيها من خبث ، لم تضــعه أنــت بعلمك واختيارك، بل وضعته أنا بجهلي وسوء أختيارالشيطان الذي صوره لي ، لم ولن أشرك بوحدانيتك ، فهي ملاذي الذي ألقي بــه عليك يا صاحب الإحسان ، فأمنن عليّ بفيض طهارة تطهر جوفي مما وضعت فيه ولتكون لي البلسم الشافي من دائي ، وصلي وســلم اللهم على النبي الذي لا نبي بعده ، وعلى ما أرسلت مــن رســل علمت منهم وما لم أعلم ، وتقبل بسر دعوة أبراهيم فنجا من حريق النار ،ودعوة يونس فخرج بها من بطن الحوت، وأيــوب فشــفيته وأعدت له أهله وملكه مثلين، وموسى الذي شققت بها له البحر ، وما منحت لكلمتك عيسى اليسوع من قدرة الخلق وإعادة مــن الموت وشفاء المرضى، وبحق ما خلقت من لديهم من علم الكتاب ، أتى لسليمان بعرش بلقيس، يارب أناديك باسمك الأعظم (قال عم

الخضر كلمة لم يسمعها هريدي على الإطلاق ، ولم يلتفت لهريدي عندما طالبه أن يعيدها ، بل استرسال في باقي الدعاء) قائلاً اللــهم أقبل عبدك العائد لحظيرتك ، اللهم آمين وكررها ثلاث ، وكــان يكرر هريدي ذلك وراءه ، حتى اشتد عليه التعب وكاد الإجهــاد الذي بدا على جسده كهزال الذي يسبق الموت، واشتد عليه التعب بعد أن فرغ عم الخضر من كلماته ودعائــه ، وكــاد أن يــدخل هريدي في غيبوبة مرة أخرى ، ولكن عم الخضر كان يهزه بعنــف رافضاً أن يدخل في غيبوبته دون أن يسمع باقي حديثه ، فقال له أنه لن يراه بعد اليوم ، فقد أنتهت مهمته معه ، وأنه أمامه طــريقين ، أما أن يستمر في هذا المكان حتى يخرج كامل تأثير المخــدر مــن جسده ، وسيجد ما يأكله ويشربه ، حتى يعود جســده كســيرته الأولى قبل تناول المخدرات ، بل أفضل مما كان وسيكون الله وليه وشافيه ، أما أن يترك ذلك المكان ويعود للمخدرات ، ويحنث بكل ما قاله أثناء ظنه أنه يحتضر وهنا سيكون الشيطان وليــه ، ولــه أن يختار ، كان هريدي يسمع تلك الكلمات التي كان ينطق بها عــم الخضر بحزم وقوة في اللفظ والصوت مع علو الصوت كلما أحــس بدخول هريدي في غيبته كأنه يستدعيه من بعُد ، أو كما لو كــان يخاطب شخص شخصاً يبتعد كل منهما عن الأخر ، كان هريدي يغالب النعاس الذي يغشاه بصعوبة شديدة ، محاولاً فهم كــل مــا يقوله عم الخضر ، أو على أقل أن يتذكر ما يقوله عنــدما يفيــق ، ولكن الغاشية أخذته وبدأ صوت عم الخضر يتلاشى شــئ فشــئ

لمسامع هريدي حتى انقطع تماماً ، بنومة لم يعلم هريدي مدهّا بعـــد أن أفاق ، وجاهد نفسه حتى وقف تماماً على رجليه المجهدتين مـــن الهزال الذي أصابهما ، ووجد ذلك الباب الذي كان يدخل منه عم الخضر ، ولم يكن يراه من قبل ، ففتحه ونظر بالخارج فدخل ضوء شديداً من أشعة الشمس لم يقدر على تحمل شـــدة إستضـــاءته ، فأغلق الباب بسرعة ، وراح يدور في ذلك المكان ليتعرف على مـــا فيه وما يحتويه ، فوجد الدورق المملوء ماء ، وأنائين التمر والعسل ومشذنة الخبز ، وتذكر أخر كلمات عم الخضر له ، من إنـــه لـــو استمر في ذلك المكان حتى فرغ ما فيه من زاد ، فقد عاد لله، وإن خرج من ذلك المكان تاركاً ما فيه من زاد فقد عاد للشيطان ، ولا يحاول أن يخرج ذلك الزاد خاج هذا المكان أبداً لأنه سيحترق الزاد ومن يحمله ، تذكر هريدي تلك الكلمات وكانت أخر ما سمعـــه ، فجلس عل الأريكة واضعاً رأسه بين كفيه ، محاولاً التغلـــب علـــى أمرين ، أولهما ذلك الصداع الذي يكادأن بعصف برأسه ، وثـــاني الأمر الصراع الذي بدأ يراوده بالخروج من ذلك المكان ، وقتمـــا يستطيع ذلك ، ولكنه تذكر فجأة ما قاله عم الخضر أنهلن يراه مرة أخرى فأنتابته نوبة بكاء كطفل فقد أمه أو أبيه وراح ينادي بصوت عالي على عم الخضر ، ولكن أسكته ما انتابه من رعشة التي كانت تعتريه من الأثر الباقي من المخدر في جسده ، ولا يجد ما يعوضه ، فلا زال جسده به ذلك السم ، وقبل أن تنتابه إغماءة تناول علـــى عجل لقيمة غمسها بالعسل ، وتمرة واتبعها بعضاً من الرشفات من

دورق الماء ، وفرد جسده على الفراش وراح بعدها في نوم عميق ، وظل الأمر على ذلك الحال حتى مر عليه أكثر من يومين بدأ يشعر بالوقت بعد أن لاحظ حركة الشمس بين الشروق والغروب وإسدال الليل بظلام لا ينيره ألا القمر والذي كان هلال كبير النمو وكأنه في الخمسة أيام الأولى من الشهر العربي وبعض النجوم ، وبدأ أيضا يفيق هريدي من سكرات جسده وتتباعد نوبات الإرتعاش ، فطفق يستعيد كامل وعيه ، والكثير من عافية جسده ، وإن بدأ يقل الزاد بعض الشئ ، رغم عدم مقدرة هريدي على تناول الكثير منه بسبب لم يعلمه ، كما أنه لاحظ أن ليس هناك حاجة لديه على الإطلاق لقضاء حاجته ، لا توجد فضلات يرغب في إخراجها ،فكانت تزيد من دهشته ، وكم تمنى لو أن يعود عم الخضر فيفهم منه ما يحدث ، ولكن هيهات أن يعود ، رغم صياحه عليه المتكرر مناشداً أياه أن يعود وهنا كان الصراع يبدأ ، يستمر ، أم يخرج ، فقد بدأ يخرج رويداً رويداً خارج ذلك المكان العجيب الذي أتى به عم الخضر فيه ، فعلم أنه عبارة عن كهف في حضن جبل ، ولكنه لم يعلم مكان الجبل تحديداً فقد كانت حرارة الشمس وشدة وهجها ، يسبب تعباً لجسد هريدي سرعان ما يسرع في العودة إلى الكهف ، وكان يتذكر بعضاً من ما يتذكره من الدعاء الذي سمعه من عم الخضر ويعيده ، قدر استطاعته ويضيف عليه بعضاً مما ينطق هو به بتلقائية أو ما كان يسمعه من خيه الشيخ عبد الستار أو أئمة المساجد التي كان يرتادها قبل أن تتملك المخدرات

من جسده بهذا الشكل ، وكان يخرج بعد الغروب ولكن أصوات هوام الليل من ذئاب وأبني أوى وضباع ، كانت تجعله لايفارق كدخل الكهف ، وها القمر بدأ يستير في السماء مقترباً أن يكون بدرا بعد أيام، وها هو التمر بدأ يقل وأتبعه العسل ، ثم الماء ، وقد كان يتيمم للوضوء للصلاة في المواقيت بمتابعة حركة الشمس ، وقد تباعدت النوبات التشنجات والتعرق التي كانت تنتابه ، وهو كان يزيد في الصلاة والدعا والإبتهال لله ، حتى كان يغفو ، وكم جمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء في بادئ الأمر حتى استقام له الأمر ، وهذه الليلة يشعر بأنه جسده قد عاد على الأقل لا يوجد ما كان يؤلمه من قبل ، وها هو الزاد لم يبقى منه ألا ما سيناوله فجر اليوم القادم ، إذن أنه موعد الرحيل الذي أخبره به عم الخضر ، غداً سيخرج ، ولن يأخذ من ذلك الكهف أي شئ على الإطلاق ، سيخرج بملابسه هو فقط التي كان يرتديها ،بالفعل أسلم جنبه مستسلماً للنوم بعض أن قال ما فتح الله به من دعاء ، فنام ، وكانت الكثير من الرؤى تراود هريدي ، حتى حان وقت الفجر ، فقام وصلى حتى أرسل الله نور الصباح ليشق ظلمة الليل ، وكان يشعر هريدي بأن فجر جديد بنور جديد يشرق في حياته هو وليس في الدنيا التي من حوله ، فنوى الرحيل وتوكل على الله ، وخرج من باب الكهف ، فوجد بجوار الباب عصا غليظة تشبه شوم الصعيد الذي يستعمل في لعبة التحطيب المشهور بها صعيد مصر ، فعرف أنها طالما هي بالخارج فهي له ، فالتقطها ، وأخذ طريقاً في

الجبل تظهر عليه أثر سير سابق وأن كانت قليلة المعالم ولكنها تفي بأمر الإقتفاء ، وسار حتى وصل منحدراً ملتوياً سار فيه حتى وصل لسفح ، أوصله لمنطقة شديدة الإنخفاض ، ومـــع زيـــادة حـــرارة الشمس ، كلما قرب الوقت كي تتصفح كبد الســـماء ، فجـــدّ هريدي من سيره ، حتى وجد نفسه على حافة السفلية لجبل المقطم ، وقد بدأ العطش واللهاث يشتد به ، فأسرع في الخطا إتجاه ما بدا له من مساكن أقترب منها حتى جدها بعضاً من القبور المقامـــة في تلك المنطقة ، ووجد بها شجرة جميز كـــبيرة وتحتـــها زيـــراً بـــه ماءوحوله بعض القلل الفخارية ، فراح يشرب منها ،ولكن هيهات بين طعم الماء الذي كان يشربه في ذلك الكهف ، وراح يســـتريح ويستظل بالشجرة ويلتقط أنفاسه بعض الشئ فلا زال جسده عليلاً ،كما أنه التقط بعضاً من حبات الجميز المتساقط من الشجرة طيب الشكل وجيد الطعم ،فأكل منها ثلاث حبات،ولم يقارن بما كـــان يأكله ، حتى سمع آذان الظهر من مصلى على مدى رؤيته فـــانطلق ليلحق بالصلاة مع الجماعة ، واسرع في خطاها عندما بدأ بشعر أن يرغب في تلبية نداء الطبيعة وأنه سيخرج لأول مـــرة مـــن جوفـــه فضلات ، ولكنه قضى حاجته وتوضأ ، وصلى ، وعرف تماماً أين هو ، وتعرف عليه أحد المصليين معه الذي قابله بحفاوة وترحيب ، عرض عليه أن يوصله بدابته حيث مخزنه المجاور لسكنه وقد كان .

عاد هريدي لمكانه، وسكنه، ووجده مرتبًا ونظيفًا، وبه بعـــض الأطعمة التي يمكن تخزينها دون ضرر أو تلف ، لقيمات من البتـــاو الفايش ، وحبات من الكِشْكْ ، وأنية فخارية بها عســـل أبـــيض وعسل أسود ، وأخرى بها مِشْ وجبن (أكلِات صــعيدية المنشـــأ والتجهيز ، ومكوناتها لا تكون معلومة إلا لأهل الصعيد نفســـهم رجال ونساء يجيدون صنعها دون غيرهم) ، كما وجد في داخـــل شكمجية كانت لوالدته كان يضع فيها النقود ، وجد فيها بعضـــاً من النقود، فقد وصل البيت بعد أن قام بصلاة العشاء ، فوجد كل ذلك وكان قد بدا عليه أثر الرحلة التي قطعها في طريق العـــودة ، كما أن جسده لازال مجهداً ، فاستسلم للنوم ، ولم يوقظه إلا آذان الفجر ، ولما بدأت حركة الحياة تدب في الشوارع ، كان صـــراعاً داخل هريدي يدب أيضاً ، فقد روادت جسده نوبة من النوبـــات المتبقية من أثر الإدمان ، ترى ماذا يفعل ، أيظل في حظيرة الرب أم يعود للغواية الشيطان ، فقد كان ذلك أو أختبار حقيقي له ، معـــه النقود الكافية للشراء المزاج ، ولاعادت رجليه قادرة للذهاب لتلك الواخير التي يبتاع منها ذلك الهباب ، وها هو جسده يناديه باسم الشيطان أن يلبي ، قاوم هريدي كل ذلك ولكن أحساســـه بأنـــه يستطيع الشراء جعل جسده يشعر بنوبة زائفة من فعل الشـــيطان ، فأطلق ساقيه غير رغبة منه لتذهب في طريق المنطقة التي يباع فيهـــا كل أنواع المخدرات ، وكان يدور داخله صراعاً يشبه الحرب ، مما أهلك من قواه العصبية بسبب صوت عم الخضر الذي لازال يتردد

في جوفه ، ومطابق لصوت ضميره هو أيضاً ، والصوت الآخر الذي يأتيه من الشيطان فيجعله يشعر بقشعرية زائفة من التي كانت تنتابه بشدة أثناء امتناعه القصري وقتما كان في كهف عم الخضر كما اسماه هو ، كل ذلك كان يجعله يمشي دون انتظام في الخطوة وبطريقة مسرعة بعض الشئ ، وجدّ في سيره بغية الوصول ، وضميره يمنعه ، فتقل قواه وكادت ان تضعف ، وأحس بعطش شديد كاد أن يجف حلقه تمام الجفاف ، فأخذ يبحث عن مصر للماء أو سبيل يشرب منه ، ولكن تلك المنطقة التي لم يتم إعمارها بالشكل الكامل ليس بها ، تلتف من يمناه ويساره وأمامه وخلفه ، فلم يلمح سوى سور برج لكنيسة عليها الصليب، على بعد غير بعيد عنه ، أقرب من الرجوع للمنطقة الآهلة بالسكان ، فانطلق بكل ما بقي فيه من قوة قاصداً الكنيسة عله يجد ما يروي ظمأه فيها من ماء ، فقد اشتد عليه بشكل جعله ما أن وصل على باب الكنيسة وطرق على باها حتى سقط مغشياً عليه ولم يفق من غيبوبته تلك وإلا أن وجد حوله جمع من خدام الكنيسة حوله ، الكل يقوم بما يجب عليه ، فذلك يمسح على وجهه بماء ، والآخر يدلك له جبينه والثاني يخلع عنه نعليه ، وهناك من يهّوي عليه بمروحة من الورق المقوى بتصيد له الهواء الرطب الموجود داخل ذلك المبنى الذي دقّ على أبوابه قبل غيبوبته ، فحدق في كل من حوله، محاولاً التعرف على الأقل ما حدث له، وكانت عينيه تنتقل بتثاقل من وجه لوجه فلا يتعرف عليهم ، فلايجد فيها سوى

. البشاشة والرقة ، وما يشعر به من لمساتهم الحانية على يده ووجــه وحتى صدره ،وعرف أنه داخل الكنيسة كما عرف أن من حوله هم خدام وكهنة وسدنة تلك الدار قدسية الطقس ويظهر ذلــك مــن الصليب المدلى من رقبة كل منهم، فشعر براحة نفسية لا جســدية حيث أنه لازال بجسده بقايا تلك النوبة اللعينــة الــتي هاجمتــه ، وجسده بسببها لا يقوى على الحراك ، وما إن وقعت عيناه علــى الصورة ، المعلقة بالجدار المقابل له حتى انتفض بشــكل مفــاجئ ، كاد أن يسقط أقرب الراهب منه ، مما أفزع الجميعمن تلك الهبــة المفاجئة ، لكن جسده لم يطاوعه على القيام فسط مستلقياً علــى ظهره ولكن يده تشير بحركة عصبية للصورة وهو يصــرخ (عــم الخضر ، دي صورة عم الخضر ، واللهوالله ده عم الخضر ، أنــا لا يمكن أنسى وشه) وكان يغالب الوهن الذي كان حــل بجســده ، فهدأ من روعه راعي الكنيسة محاولاً تهدئته أولاً وثانياً فهم ما يقوله ذلك الرجل ، الذي لازال جسده ينتفض ويتر منه العرق بغــزارة رغم الطقس الرطب داخل الكنيسة والتهوية الدائمة التي يقوم بهــا أحد الرهبان موجهاً الهواء مباشر لوجه هريد وكان ذلك الراهــب يكاد أن يكون فوق رأس هريدي من الخلف ، واستمر هريدي في الإشارة بيديه لتلك الصورة المعلقة ، مستمراً في كلامه الذي لم يعد مفهومة من شدة ما يتدافع منه ، فأحضر راهب الكنيســة كأســاً معدنياً به قليلاً من الماء ، وأقترب من هريدي قليلاً، وقبل أن يناول هريدي الكأس ليشرب ، قرب الراعي الطيب الكأس من فمه وأخذ

يتمتم ببعض الكلمات التي لم يفهمها و لم يسمعها أصلاً هريدي و لم يرى سوى حركة شفاه ذلك الرجل المقدس ، ولكن الذي هال هريدي ، وجعله يحاول أن يقوم من رقدته المتنفصة الرقود ، هاله الكأس الذي بيد الراعي أنه نفس الكأس الذي كان يسقيه منه عم الخضر بالكهف ، معلناً ذلك أن الكأس هو كأس عم الخضر ، مستنجداً بمن حوله ليصدقوا ما يقول ، فكانوا يهدأوا من روعه ، وما إن انتهى الراعي من إتمام ما كان يتمتم به حتى أقترب تماماً منه مناشداً أياه باسم الرب أن يهدأ وباسم الرب أن يشرب ، ما في الكأس ، وللظمأ الذي كان يعتري هريدي تناول الكأس من الراعي وشربها ، ولكنه فجأة توقف عن الشرب ، معلناً أن حتى نكهة تلك الماء هي نفسها التي كان يشربها في الكهف ، كان الجمع يسمعه وبالطبع لا يفهمون ما يقول ، ما الكهف الذي يذكره ؟ ومن عم الخضر الذي يصر أنه هو نفسه الذي بالصورة المعلقة ، ولكن هناك من فهم ما يقوله ذلك الرجل ، لأنه يعرف منه هو "الخضر" أو "عم الخضر" كما يقول هريدي ، وهذا الرجل هو راعي الكنيسة نفسها ذلك الرجل الورع التقي ، فقد بدأ يفهم بعضاً مما يقوله ، ولما بدت بعضاً من بشاير الهدوء على هريدي بعدما أفرغ ما بقى من الكأس فيه جوفه وأستلقى مستسلماً ، أمر راعي الكنيسة الكل بالإنصراف ، وتركه مع الرجل ، وعلى فور انصرف الجميع من حولهما ، وجلس الراعي بجوار هريدي ممسحا على جبهته برقة وحنان لم يعهده هريدي من قبل ولكنه كان مستسلماً له تماماً وكف عن

الحديث وظهرت بودر دمعة من مقلتيه ، ومخاطباً أياه يا بني أهـــدأ وقل لى كيف لك أن تعرف الخضر ، وإين رأيتـــه ، أحـــكِ لي إن وددت ذلك ، وإن لم ترد أن تحكِ فلك ذلك ، فاسترسل هريـــدي بدون مقدمات ولا تحفظ ليحكي كامل قصته من البدايـــة لراعـــي الكنيسة وكأنه بتعبير تلك الأيام "مريض في عيادة دكتور أمـــراض نفسية"، سمع منه الراعي ما كان يحكي ولم يقاطعه إلا عندما وصل هريدي في حكيه عند لحظة مرورهما على ذلك الرجل الذي كـــان يسير على البر ونادى على المراكبي طالباً للحاق بالسفينة ، فجـــنح الكراكبي قليلاً ناحية البر وقفز ذلك الرجل للمركب ، ومع صيحة عبدالستار أخيه ، "سيدنا الخضر" ، هنا قاطع الراعي هريدي أخيك قال الحق ، وحق الرب أخيك قال الحق وحق الرب ، وطلب منـــه أن يكمل حديثه ، وكان الراعي يصنت ، وكلما جاءت سيرة عـــم الخضر كانت تلمع عين الراهب ، وكانت عيناه تدمع حتى تبللـــت لحيته وما إن فرغ هريدي من حديثه الذي سَرّبه للراعي وكأنه على كرسي الإعتراف ، حتى قام الراعي وقبل هريدي بين عينيه ، وهو يقول بحق أبي الذي في السماء أن ذلك الرجل هو "سريع الندهـــة" أنه الخضر نفسه ، أنه مار جرجس الشهيد الخالد ، هـــو صـــاحب تلك الكنيسة ، وتلك هي صورته التي رأيتها ورأيته حقيقة وعـــاش معك ومع أخيك الذي تقدس بما داخله من قرأن كريم ، ولذا هـــو أول من عرفه ،وهو أول من نطق باسمه ، فاستهواكم الاســـم دون أن تتيقنوا أنكم اصبتم كبد الحقيقة لحكمة لا يعرفها إلا الله وأنـــك

يابني أنت وأخوك مرضياً عليكما من قبل الرب ، فابتلاك الله بآفة المخدرات كي تكون العبد الصالح الذي يقوم على خدمته أعظم رجل صالح على وجه البسيطة ، قم يا بني واذهب عائداً لحظيرة الرب ، ففهيا نجاتك ، وفيها حياتك ، ولك فيها رسالة لن تعرفها الآن ، وما كان الرب يرسل لك عبده الصالح هذا ، إلا أن يكون لك في الحياة رسالة كبرى وعمل ربانياً ستقوم به ، قم يا بني اعبد ربك بما احببت واستقم وافعل ما تأمر به من خير فالشر لن يدق بابك إن خرجت من باب الكنيسة تلك قاصداً باب دارك ، وامكث فيها ثلاث ليالي صائماً نهاراً حتى الغروب كصيام رمضان إلا من الماء الذي ستقرأ عليه ما يتيسر لك من كتاب الله الذي في حوزتك وإيمانك وسأعطيك تمرات تسع تغمسها في القليل من زيت الزيتون الذي سهبك إياه ، ولاتخرج ولا تحدث فيهم أحد مطلقاً ، واذهب وقت ما تكون قادر على المغادرة ، كان يقول كلماته تلك وعيناه لازالت تدمع ، وكذلك هريدي ،وما إن انتهى من حديثه حتى بادره هريدي بسؤال مستفسراً عن من الذي بتلك الصورة وما قصة تلك الصورة وما هذا الوحش الذي يغمد فيها سيدنا الخضر رمحه وهو متطي ذلك الحصان ، فاخبره الراعي الورع أن هذا الرجل هو القديس جرجس والذي يطلق عليه مار جرجس وأن كلمة مار معناها السيد أو القديس ، وحكى له أنه صاحب لقب سريع النجده ، فهو جند من جند الله لأسباب لا يعلمها إلا الله يرسله للبشر ، فقد قيل عنه أنه الخضر الذي تقابل مع سيدنا

موسى ، والذي تعلم منه ما كان يظن أنه به عليم ، وقيل عنه أنـــه الذي عنده علم من الكتاب من حاشية سيدنا سليمان والذي منحه الأذن ليأتي بعرش بلقيس من سبأ ، مفضله عن العفريت من الجن ، وأنه هو من دارت الأقاويل عليه فيما يخص قصـــة التـــنين الـــذي يظهأحاق بتلك البلدة المؤمنة ، وليحافظ على تلك الأميرة الموجودة بنفس الصورة وقد بدا عليها شدة الرعب ، والذي فُسِر أيضاً على أنه رمزية قوته في مقاومة الشر والشر يابني هو الشيطان بعينه ، وأما تلك الأميرة فهي ترمز للكنيسة نفسها ، وها هو سريع الندهة وهو على سفينة حياتكم ينقذك من شر الإدمان ، الذي فرّق بينك وبين أخيك الرباني التقي ، ظهر يا ولدي في حياتكما لأنكما يـــا بـــني مباركين من الرب ، ظهر لكما لتتم - قلت لك من قبل — رسالة ربانية ، قد علمت أن الرب ساقك لداره المقدسة تلك لأمر ما ، ألا وهو لتتيقين من نبل ما فيك ، وصحة ما رأيته بعينيك ، وحتى أوقن أنا ومن ورائي من المؤمنين من شعب كنيستي ، وكافـــة المـــؤمنين بالرب أن الغيب الذي أوجده الله في قلوب المتقين هـــو الحـــق ولا جدل فيه ، وقد قال الله في قرآنه (ألم ذلك ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ...) ذلك يا ولدي المبارك هو الغيب الذي آمنت به ورأيته وحكيته لنا ، لذلك جلست بجـــوارك حتى أُأكد لنفسي صدق حدثي فيك منذ أن أشرت لمار جـــرجس وقلت عم الخضر ، فعرفت أن وراءك الحقيقة الإيمانية وهي الغيـــب

الذي أُمرنا أن نؤمن به ، وقام الراعي من جلسته وقبله من جبينه ، مكرراً له اذهب حيثما شئت فإن عليك رسالة ، وتركه وذهب.

سرى في جسد هريدي نوع من الانتشاء والسكينة ، وكأن جسده برئ تماما من أثر المخدرات ، فظل مستلقياً على ظهراً ناظراً لتلك الصورة المعلقة على جدار الكنيسة ، مع خفوت الضوء من حوله ظن أن من في الصورة يتحرك ، أو على الأقل عين الرجل الذي على صهوة الحصان تنظر إليه ، فظل يدقق النظر في عينيه حتى غفا في نومة فرأى الصورة أمامه حية ، فوجد نفسه في موضع الأميرة الخائفة ، ووجد هم الخضر أو مار جرجس لازال فوق حصانه ويطعن برمحه الطويل الذي في يديه التنين ، فيندفع منه دم له رائحة يعرفها هريدي جيداً هي رائحة مخدر الأفيون الذي كان يتناوله ، ولكن الرائحة تلك يشمها خبثة نتنة ، فيشمئز منها هريدي، وتأنف منها نفسه ، فتنتابه حالة من القيئ الشديد ، فيفيق من نومة تلك وهو في حالته تلك على القيئ ، فيقوم محاولاً إمساك نفسه عن ذلك ولكنه فشل ، وكانت رائحة القيئ ما هي إلا الرائحة التي أنفها في حلمه القصير، مما زاده أنفاً لها وفي تلك اللحظة دخل عليه الرهبان والسدنة الكنيسة ، يساعدونه على ما هو فيه ، حتى أفرغ كل ما في جوفه ، فنظفوا ملابسه والمكان ، وناوله بعضاً من الماء الذي كان موجود بجانبه ، والذي له نفس طعم ماء عم الخضر ، فاستراح وتغلب على رائحة ما أفرغه ، وعادت إليه إنتعاشته،

وكأن شيئ لم يكن ، فشكرهم على كل ما فعلوه وانصرف من الكنيسة وأحس كأنه ولد من جديد ، وذهب للحياة ، بعد أن عاد إليها من رحلة فاشلة ، فقصد بيته ، حاملاً ما أعطي له من زاد ، على أن ينفذ ما طلبه منه الراعي الطيب من أمر الصيام ثلاث ليالي ، كأنه تذكر صيام البتول صفية الله وكذلك صيام زكريا .

مرت الللیالي الثلاث على هريدي بين عبادة واستغفار وصلاة، وأحلام وكوابيس، لكنها مرت كما نصحه الراعي الطيب ، ونزل بعد صلاة الفجر حيث مكان مخزنه ، ومع إشراقة الشمس ، بدأ اليوم ، فإذا بالمحضر ومعه مأمورية التفليسة ورجلين من البوليس يحضران لمخزنه ، وهو جالس فيه ، ويحصران كل ما بقى من بضاعة جيدها وهو القليل والكثير منها غير جيد ، فيحصروها ويدللون عليها بأبخس الأسعار ، وينتهوا من عملهم ، ولم يفوا. بالدين المطلوب عليه لحساب الخواجة صروف الذي صبر عليه طوال الفترة السابقة نظير فائدة ربوية فاقت أضعاف أضعاف الدين ، ولعدم قدرته على السداد قبل هريدي بكتابة كمبيالات أخرى تزيد عليه الدين ، ولما لم تفي بضاعته وما يملك من سداد ، اقتادوه لقسم الشرطة ، كباقي المأمورية حتى يجدوا الطريقة التي يمكن سداد باقي الدين بها ، وكان هناك في انتظاره الخواجة صروف اليهودي ، ورغم غناه الفاحش ، إلا أنه كان متمسكاً في كلامه وطلبه وفاء الدين الذي يطلبه من هريدي ، وأمام مأمور القسم ، والذي وجه

العديد من الأسئلة الإستفسارية لهريدي لمعرفة كيف سيقوم بالسداد ، فكان الرد دائماً بعدم القدرة على تحديد الطريقة ، لعدم وجود ما يملكه سوى زراعه وصحته أنه سيعمل بكامل طاقته للسداد ، وكان الحديث في بادئ الأمر لا يروق لصروف ، لمعرفته عدم توافر العمل الذي يمكن أن يجني هريدي منه القدرة على سداد الدين ، ومع عدم الوصول للحل ، فلا يملك البوليس إلا القبض عليه وفاءاً بالحق المدني حتى يتم السداد ، وسيظل في محبسه حتى الإنتهاء من ذلك الأمر ، الأمر الذي جعل صروف بصهيونيته يفكر كيف يستفيد من الأمر ، فابعد أن تأكد صروف من أمر ما سيحدث ، فآثر بين حبس هريدي ، وبين الإستفادة منه شخصياً ، فهو يحتاج لرجل جلد قوي للعمل معه في مصالحه ، على أن يستعبده نظير الدين الذي عليه ، ويستقطع من أجره هذا الدين ، وبذلك يكون استفاد منه دون حبسه دونما أي استفادة ، فطلب صروف من المأمور إمهاله فرصة للتشاور مع هريدي في أمر السداد ، عسى أن ينهي الأمر بالتراضي دون التقاضي ، فرحب المأمور بالأمر حتى ينتهي من تلك المشكلة التي أرقت عليه اليوم بكامله وعطلته عن تنفيذ مهام أخرى مطلوبة منه ، بالفعل عرض صروف على هريدي العمل لديه نظير الدين مع استقطاع مبلغ من الأجر ، وافق هريدي على شرط ألا يعمل في أعمال ليس فيها ما يغضب الله ، وليقطع ما يقطع من أجره بعد ذلك يكفيه ما يسد رمقه ويعفيه من السؤال ، وعلى ذلك تم الإتفاق ، وخرج هريدي من أزمته وكان يردد في سره طوال

تلك الأزمة دعاء سيدنا يونس عليه السلام "اللهم لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين" وكان موقناً في الإجابة ، وقد استجاب له رب العالمين .

استعرض صروف مع هريدي كل أماكن العمل التي لديه ، فاختار أن يعمل كحارس للعقار المملوك لصروف بشارع عماد الدين ، حيث أنه ملحق به سكناً وبه فرشاً يفي بحاجته في المعيشة ، وخاصة أنه لا يملك سداد إي أجرة لسكن خاص به بعد افلاسه ، فرضى هريدي بذلك العمل ، واخلص فيه حتى اصبح محبوب كل سكان العمارة بكل أطياف ساكنيها من مسلمين ومسيحيين ويهود ، ولم يؤرقه أحد من ضمن السكان سوى ذلك اليهودي المتنطع المسمى يوسف الشامي ، وما يفعله بسبب ولعه الشديد بالنساء. وسكره اليومي وعودته قرب صلاة الفجر ، فقدر كره لتصرفاته تلك إلا أنه كان يساعده في التيقظ لصلاة الفجر حاضر بالمسجد القريب ، فبعد أن يوصله لسكنه في شقته وهو في حالة الأعياء التي تسببها الخمور التي كان يتناولها ، فقد كان هريدي يقوم للإغتسال والوضوء والذهاب لفتح المسجد وتنظيفه ورفع الإذان الأول والثاني ، حتى تقام الصلاة فيعود للحراسة العقار ، وهكذا ظل الحال مع هريدي ، واصبح راضياً مرضياً ، وإذا غلبه الشوق لرؤية عم الخضر ذهب لكنيسة مار جرجس في زيارة خاطفة بعد صلاة الفجر ، ويقابل مع الراعي الطيب إن سنحت له الظروف ويأنس بجلسته

الخاطفة تلك مع هؤلاء الربانيون من كهنة وسدنة ورهبان الكنيسة ويملأ جفنيه من صورة عم الخضر أو مار جرجس ويرجع عائداً لعمله ، وكان قد نما لعلمه أن إخيه عبد الستار قد هجر مصر هو وأولاده وعاش بالسودان كداعية أسلامي هناك وما حولها من البلدان التي تحتاج من يفقههم في دينهم وقرآهم ، ومن ناحية أخرى نسى هريدي تماماً حساب ما عليه من دين للصروف ، وكم بقى وكم دفع فلم تعد تشغله تلك الأمور ، وحتى بعد إن إنقطع صروف عن سداد أي مستحقات مالية لهريدي بعد أن علم بأمر المنح والعطايا التي يدفعها سكان العمارة لهريدي نظير قيامه بتلبية احتياجاهم وحرصه الدائم عليهم وعلى أولادهم ، فكان محل ثقة لهم جميعاً دون إستثناء ، فكانوا يتركوا له مفاتيح الشقق لتنظيفها ، وإعادة ترتيبها ، دون إي نقصان مما أفاض عليه بلقب الأمين ، وحتى أن اليهودي يوسف الشامي كان يترك له مفاتيح شقته خلال سفرياته الطويلة الغير معلومة الجهة أو المدة .

واستمر الحال على هريدي على تلك الوتيرة ، ولم يكتئب منها رغم تكرارها اليومي ، وذلك بسبب ما فيها من روحانيات من خلال خدمته للمسجد المجاور ، وزياراته المتكررة لكنيسة مار جرجس ، والإعتقاد الذي رسخه داخله راعي الكنيسة من أن هناك رسالة سوف يتمها عندما يحين وقتها ، فكان ذلك الأمر يملاءه نوراً

روحانياً ، قمته عندما كان يحلم بعم الخضر بهيئته التي كان عليها أو في صورة مار جرجس .

ومرت الأيام حتى التقى هريدي ببديعة (بنت ريا) والتي أخفت عنه شخصيتها الحقيقية تماماً حتى أنها ماتت و لم يعلم هريدي أنها بديعة بنت أشهر سفاحة في مصر ، بل علم أنها المعلمة نجية صاحبة وكالة الضابط ببولاق وزوجة السيد بك العسيلي ، وربيبة الضابط محمد الشحات أشهر صف ضابط في بر مصر لمساهمته الفعالة في القبض على العصابة التي أرقت مصر كلها وليس الأسكندرية فقط .. ولا ننسى ما تم في أول لقاء تم بين هريدي والمعلمة ، أمام العقار المملوك للخواجة صروف به سكنة يوسف الشامي الذي كانت تسعى وراءه المعلمة ، ونتذكر ما حدث منه يومها ، عندما عرض عليها بشهامة أهل الجنوب المساعدة للبحث عن زوجها داخل البار عندما أفهمته أنه متغيب منذ عدة أيام ودلوها أهل الخير أنه داخل ذلك البار ، ولا ننسى الغضب الذي بدا عليه عندما علم منها عن اسمه ، فانقلب عليها وثار بنخوة الرجل الحر الذي لايميل أو يحيد أو يقبل جعله مطيةً لضعاف النفوس ، كونه علم أن من تسأل عنه وتدعي أنه زوجها ذلك اليهودي الذنديق رغم يهوديته ، وهو يعلم كونه وكونيته وهو زير نساء و لم ولن يتزوج ، كما أنه أحس من كلامها بأنها ليست يهودية ولا مسيحية ، وقد رأى الحلية الملاة من جيدها وعليها مشيئة الله ، ولا ننسى تأثره من دموعها

التي فرت من عينيها كشلال منهمر ، رغم ما كان يهيل عليها من اللعنات ، وقد هب واقفاً من جلسته التي كان عليها ، ويكــاد أن يقذف بها من على الأريكة التي كانت تجلس عليها بجواره ، فقــد حنّ لدموعها ، فطفق يهدأ من روع نفسه أولاً بالتهليل (لا إلله إلا الله) ومحوقلاً (لا حول ولا قوة إلا بالله) وكرر ذلك كــثيراً حــتى هدأت نفسه تماماً وكانت هي لا زالت على نحيبها ودموعها الــتي حس بالصدق فيها ، فأخذ يهدأ من روعها ولكي تحكي له أمرها ، وقد كان وراح يسمعها وينصت إليها ، ولم يقاطعها إلا عندما علم أنها المعلمة نجية صاحبة وكالة الضابط وزوجها السيد بك العيسيلي ، فقاطعها خابطاً رأسه بيده صارخاً بلهجته الجنوبية (يا بووووي .. صوح ، أنتي أنتي المعلمة نجية ، أني اشغلت معــاكم ف الوكالــة وخزنت عنديكم بضاعة أول ما فتحها الضابط محمــد ، وكــان مشيعني له الحاج رمضان العطار) وطلب منها إكمال الحديث (يــا بنت الناس مالك ومال الكلب يوسف ده ، وانتوا أهل خير وبــر وسيرتكم زي الفل) فاستكملت المعلمة حكايتها وأخبرتــه بالشــر الذي حاكوه لزوجها بعد أن عاد لصوابه ، بعد أن علموه الســكر والعربدة ، وأكد هريدي على كلامها وأنه يعرف زوجها الســيد بك وقد رأه مراراً مع اليهود الثلاثة بن صــروف وبــن كــوهين الساعاتي ويوسف الشامي هذا الذي تبحث عنه ، كما أخبرته بأمر البضاعة المحّرمة التي وضعوها في أجولة التمــر ثم أبلغــوا عنــها السلطات ليكبسوا على الوكالة إنتقاماً من السيد بك العيســيلي ،

ولكنه قاطعها للمرة الثانية ، وبنفس الطريقة خابطاً يده على رأسه بقوة أشد من الأولى ، مخبراً أياها أنه سمع همامسهما بشأن تلك البضاعة ، وأن سمع اسحاق بن صروف وهو يتحدث بالتليفون بشأن ذلك الأمر زكان في لهجته نوع من الأدب الجم مع المتحدث معه ، وأنه ختم المكالمة بقوله فاعل خير ، ولما كان هريدي يعلم أهم بعيدين كل البعد عن فعل الخير استغراب الأمر وهذا ما جعله متذكراً ذلك الموقف ، وتذكر كلمات أخرى مثل مخدرات وسلاح وضابط وفاعل خير فعندما يربط الحديث الآن ببعضه البعض فهم اأمر الذي كان يتحدث عنه اسحاق ومع من كان يتحدث ، كما أنه ربط بين ذلك وبين ما كان يكيله صروف نفسه من لعنات على وكالة الضابط وما تفعله من أفعال أفسدت عليه السوق وسوق الربا تحديداً ، وترك لها الحديث مرة أخرى وقد احمرت وجنتيه وزاد غيظه وحنقه على ما فعلوه بالوكالة والسيد بك ، زعندما عرضت عليه خطتها ، رفض الأمر في بدايته ، خوفاً عليها من ذلك الذئب الذي لم تنجو أنثى من نهشه ، ولكنها اخبرته انها قادرة أن تحمي نفسها منه ، وطلبت منه أن يكون بجانبها ، فوافق على ذلك وتعهد لها أنه سيكون بجانبه مهما كلفه الأمر .

وبدأ معها تنفيذ الخطة ومتابعتها، حتى نجحت في الحصول على اعتراف يوسف الشامي على أصحابه وخروج السيد بك العيسيلي من محبسه ودخول ابن صروف وابن كوهين السجن، واستغرب من

عدم دخول يوسف الشامي معهما، فأفهمته أن السلطات اعتبرته شاهد ملك في القضية وأكدت عليه سرية الأمر واستمراره دون البوح بأي معلومات عن يوسف لدى صروف ، أو ما كان يدور بينها وبين يوسف ، وقد كان ، كما شارك هريدي المعلمة نجية فرحتها بعودة زوجها وخروجه من محبسه، وما ناله من الخير والبر، ويكفيه أنه أصبح جزءاً من هذه العائلة، والتي عرفت بأمره وقصته وسبب خدمته لصروف على هذا النحو ، وأمر الكمبيالات التي لدي صروف نظير الدين وربا الدين الذي كان عليه مستحق وغير مستحق لصروف المرابي ، فطلبت منه أن يطلب من صروف سرعة إنهاء حساباته وحصر ما بقى عليه من دين حتى يسدده ويتحرر من نير العبودية التي يعانيها من خدمة صروف وأفعال يوسف المشينة، وبالفعل ذهب لصروف ورغم انكساره على حبس ابنه إسحاق إلا أن ذاكرة المال لا تنكسر عنده أبداً ، فحدد له المبلغ المتبقي عليه، وعاد له به بعدما أنقدته المعلمة ذلك المبلغ ليشتري حريته ، وإن ظل في عمله كما طلبت منه المعلمة حتى يتمكن من إيجاد ظرفٍ أصفر اللون به تصاوير وأشياء أخرى داخل شقة يوسف الشامي يهمهما العثور عليه وجلبه لها دون أن تشرح له ما يحتويه ذلك الظرف، ورغم بحثه عليه يومياً أيام كان يوسف في سفريته الأخيرة الطويلة التي هرّب فيها ابن أخته رحيل لألمانيا، فإنه لم يجده ، وحتى بعد أن عاد يوسف من سفريته تلك فقد فشل هريدي في إيجاد ذلك المظروف التي تطلبه بإلحاح المعلمة، وكم كانت تنازعه نفسه لعدم

مقدرته على الوفاء بما طلبت ، حتى أنها طلبت بنفسها منه الكف عن البحث عن ذلك المظروف فلم يعد له أي أهمية وخاصة أنه علم مثل الآخرين بحادث مقتل يوسف الشامي في منطقة الهرم وما جاء من معلومات عن مقتله على يد غانية من تلك الغواني اللاتي كان يلتهم أجسادهن بذئبيته المعهودة ، ولم يعلم هريدي أن الظرف الذي كانت تبحث عنه المعلمة في شقة يوسف هو ظرف به صور تكاد تكون فاضحة لها مع يوسف، تلك الصور التي كان يبتزها بها يوسف كي يقضي منها وطره ، كما لم يعلم هريدي أن من قتلته هي المعلمة نفسها ، ولكنه بعد ذلك الحدث وبعد انتهاء المهمة التي كان مكلفًا بها بشأن ذلك المظروف ، وأمام اعتلال صحة المعلمة ودخولها المستشفى أكثر من مرة ، فضل أن يكن بجانبها، وبجانب السيدة المباركة الشيخة سالمة ، يحمل عنهما أعباء الوكالة من جانب ، وقد كان السيد بك مشغولاً عنها بمراعاة حالة المعلمة الصحية وعبادته التي وصل فيها لحد زهد الدنيا نفسها لولا وجود المعلمة بها ، كما أن هريدي شارك الشحات في مهام الوكالة وأصبح جزءًا لا يتجزأ من تلك الأسرة التي جمعها الله على الحب والخير ، وتذكر هريدي ما قاله له راعي كنيسة مار جرجس من أن هناك رسالة له في تلك الحياة عليه تنفيذها ، فتلك هي كانت رسالته التيحفظه الله من شر المخدرات كي يؤدي تلك الرسالة ، وتذكر الرؤى التي كانت تراوده أيام كانت المعلمة تقوم بخطة إنقاذ زوجها من براثن كيد اليهود، وكانت تلك الرؤى يرى فيها عم

الخضر في صورة مار جرجس وهو عل صهوة حصـــانه ويـــرى في الصورة نفسها صورة المعلمة نجية بدلاً من الأميرة الرومانية الخائفة ، فكان يوقن أن الله ناصر الحق الذي كانت تبتغيه المعلمة فيما كانت تقوم به ، وقد فاجأته المعلمة عندما قامت قبل وعكتها الأخيرة من تجهيز سكن جيد له بجوار مسكنها في بولاق وأوصت بجلب فـــرش له جديد وجيد واختارت له أحدى الأرامل ليتزوجهـــا بمباركـــة الشيخة سالمة فوافق ولم يعقب ، ولكنه حزن كل الحزن كما حزن الآخرين على فراق المعلمة بعد أن وضعت مولودها الأخير لتنتـــهي حياة من المشقة لم يعلمها إلا القليل ممن كانوا حولها ، ولكنه بقـــى على عهدها والدعاء لها في كل صلاة كدعائه لوالديه ، وأخلـــص للعمل في الوكالة أكثر مما كانت هي موجودة فيها ، وقد أنعـــم الله عليه بالذرية الصالحة ، وكانت مصالحة الله له الكبرى بأن عاد من السفر للسودان أخوه عبد الستار ، وكان أول من سأل عليه عندما حطت قدمه القاهرة كان سؤاله عن أخيه وكان باستحياء لما كـــان يعلمه عن أخيه قبل سفره ولكن الرد جاء سريعاً ، ومثلجاً لصـــدره بعدما علم من رد السؤال بالصالح الذي بات فيه هريدي ، والخـــير الذي أنعم به الله عليه ولله في أمره شـــئون لا يعلمهـــا إلا هـــو ، واجتمع الأخوان من جديد ، والتأم شمل الأسرة ، بل وتزوج أبناء عبد الستار الصغار من أبناء هريدي الذي تزوج متأخراً عن أخيـــه الأصغر بأكثر من عشر سنوات ، وتذكرا عم الخضر وذكر هريدي لأخيه أمر الصورة التي بكنيسة مار جرجس ومدى الشبه بين عـــم

الخضر ومار جرجس وما قاله الراعي الطيب بتلك الكنيسة ، وقد أجابه عبد الستار أن الله واحد وأن الرسل والأنبياء حق والغيب حق ، وأن الدين واحد حق وما هي إلا ملل خلقها الله وعددها لحكمة لا يعلمها إلا هو وتذكرا والديهما وأكثرا من الدعاء لهما فقد كان أبواهما صالحين رحمة الله عليهما.

تمت

الفهرس

كان عهداً على الكاتب فى روايته الأولى :

بديعة بنت ريا وسكينة

أن يفرد مساحة لكل شخصية من الشخصيات التى أتى على ذكرها فى تلك الرواية ومساعدته فى إبراز عمله الروائى السابق وهاهو الآن يقدم شخصياته وفاء لهذا العهد لكل من :

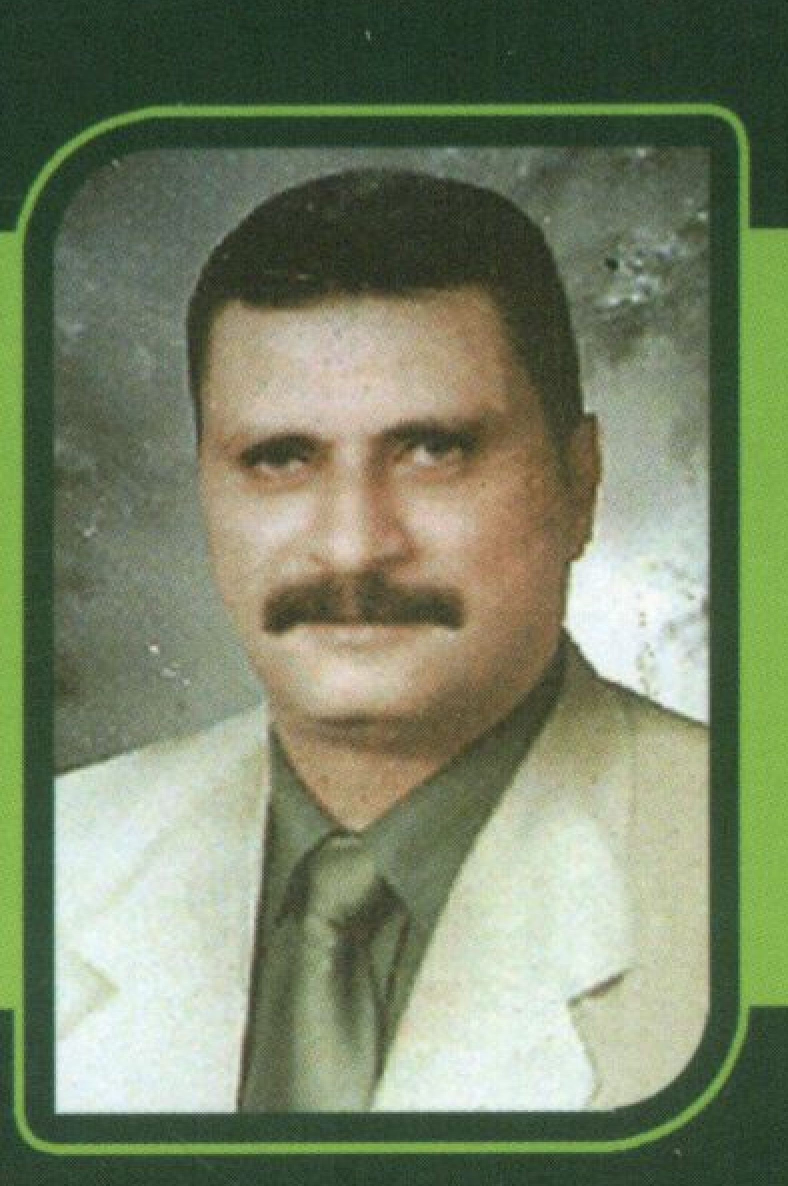
يوسف الشامي وهريدي الصعيدي

مع العلم بأنه سبق وأن قام بتقديم رواية باسم

الشيخة سالمة

وبهذا اكتمل عهده لديهم.

شخصيات حول "بديعة"



الكاتب : مصطفى عوض

صدر له من قبل :

رواية " بديعة " و رواية " الشيخة سالمة "

صفحة الكاتب على فيس بوك : " مصطفى عوض المراغى "



غلاف : أمير مصطفى